
روايات مصرية للجيب
41
ما وراء الطبيعة
أسطورة فرانكنشتاين
www.rewity.com

مقدمة

أنا الدكتور (رفعت إسماعيل) أستاذ أمراض الدم السابق الذى صار شيخاً ثرثاراً ، لايكف عن سرد ذكريات ماضيه .. حمداً لله على أننى لم أبدأ بعد فى الكلام عن البيضة التى ثمنها مليم ، والدجاجة التى ثمنها خمسة مليمات ، بدلاً من هذا أتكلم عن الأشباح والمذءوبين ، والتوابيت التى تتفتح عند دقات الساعات فى منتصف الليل ..

أنا الدكتور (رفعت إسماعيل) أستاذ أمراض الدم السابق الذى عاش أو عرف العديد من القصص الغريبة ، والذى شاء الله (تعالى) أن يجد له من يهوى سماع هذه القصص ، لذا صارت سلواه الوحيدة ـ وهو بلا ولد ولا زوجة وحالياً بلا صديق ـ أن يرقب الوجوه الشابة المحيطة به ، وقد اتسعت عيونها شوقاً إلى القصة التالية .. تنتهى القصة فتتضارب الآراء ..

البعض يصرخ : سخييييفة ! هراااااء ! والبعض يراها جيدة .. البعض يرانى مغامراً لايشق لـه غـبار ، والبعض يرانى أكبر كذاب عرفه القرن العشرون ، حتى إننى جدير بالانضمام إلى البارون (منخاوزن) أكبر كذاب فى تاريخ أوربا ..

آراء لاتنتهى .. لكنكم - ويا لفرحتى - تضعون فى النهاية القبضات تحت الذقون ، وتتسع عيونكم أكثر ، وتقولون :

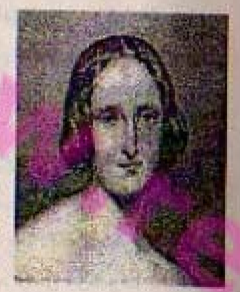
- « هلم احك قصة أخرى ، ولكن لتكن مرعبة هذه المرة .. هل تسمعنا أيها العجوز ؟ مرعبة ! » .

فأقول وأنا أحك صلعتى مفكرًا :

- « ليكن .. اليوم أحكى لكم قصة (فرانكنشتاين) .. كلا .. ليس (فرانكنشتاين) هو الوحش المرعب الذى تعرفونه .. بل هو مخترعه ! الوحش لا اسم له ، وهذا خطأ شائع إلى حد أنه صار غير قابل للتصحيح .. اليوم أحكى لكم القصة ، ودعونا نرجئ الأسئلة إلى ما بعد أن أنتهى .. »

كانت القصة كما يلى .....

١ - عن الأسطورة وصانعة الأسطورة ..



البرق يلتمع فى السماء ، يليه الرعد .. القلعة المهدمة ترتج فوق جبلها المخيف .. القرية ثائرة والرجال الفلاحون السويسريون - ويعلم الله أنهم شرسون حقًا - يلوحون بالمشاعل ، وفى عيونهم يتوهج ما هو أكثر شراسة من النار :

- « يجب أن نصعد إلى القلعة ونمنع ذلك المجنون من الاستمرار فى تجاربه .. »

يا له من وقت غير مناسب للثورة ! إن الطبيعة ثائرة بما يكفى ، وسيول الأمطار تجعل الرؤية أو التعقل أمرين مستحيلين ..

وتزداد الصواعق سخاءً .. وتهوى الألسنة الملتهبة فوق جهاز منع الصواعق الذى ابتكره (فكتور فرانكنشتاين) ، فتسرى الكهرباء فى دوائر غاية فى التعقيد إلى الجهاز العملاق والجسد الميت المسجى تحت ملاءته المتسخة .. كهرباء قادرة على تحريك الجبال .. تتوهج الغرفة كلها بالنور الساطع ، وتشم رائحة اللحم المحترق ، وتسمع الأنين .. الأنين العميق من تحت الملاءة !

* * *

هذه هى العوالم التى لم تكن موجودة قبل أن تبتدعها فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها .. فتاة تدعى (مارى ولستونكرافت شيللى) .. قصصية إنجليزية من المرحلة الرومانسية ، ولدت عام ١٧٩٧ وتوفيت عام ١٨٥١ .. ابنة الفيلسوف (ويليام جودوين) ، وأمها من زعيمات الحركة النسائية الشهيرات .. توفيت الأم سريعًا بعد إنجاب ابنتها ، ولم يستطع الأب أن يغفر هذا لـ (مارى) كأنها السبب فيما حدث ، وهى نقطة نفسية مهمة يجب ألا ننساها ..

وقد نشأت (مارى) فى (لندن) فى بيئة أدبية مغرقة ، حتى إنها رأت (كولردج) الأديب البريطانى العظيم فى دارها ، وعمرها مازال عامين .. ثم تزوجت من الشاعر (بيرسى شيللى) ، وهو من هو بالنسبة للأدب الرومانسى الإنجليزى مع زملائه (بيرون) و (كيتس) .. وعام ١٨١٨ قدمت أول وأهم أعمالها (فرانكنشتاين) ، وقد قدمت بعد هذا أربعة كتب تعكس ليبرالية اجتماعية واضحة ، لكنها ـ شأن الأديبات عامة ـ لم تشتهر إلا برواية واحدة هى التى نتكلم عنها اليوم ..

وتوفيت (مارى شيللى) عام ١٨٥١ بورم فى المخ ، ومن السخرية أن وفاتها تزامنت مع المعرض العلمى الإنجليزى ، الذى قدم اكتشافات مثيرة تذكرنا بما قدمته هى فى رواية (فرانكنشتاين) ..

* * *

كان (فكتور فرانكنشتاين) عبقريًا منذ نعومة أظفاره .. دائمًا كان يملك الكلمة النهائية فى أى جدل

علمي بينه وبين (إليزابيث) أخته ـ بالتبني فحسب ـ وصديق عمره (هنري) .. لقد نشأ الجميع في بيت آل (فرانكنشتاين) قرب (جنيف) ، وسرعان ما رزق أبواه بطفل جميل سموه (ويليام) ..

كان ذكاء (فكتور) مربكًا مخيفًا من البداية ، ولم يكف عن التساؤل والتجريب قط ، غير أن هناك حادثة خاصة تتعلق بالبرق ، فتحت عينيه على الإمكانيات الهائلة لتلك الكهرباء الطبيعية رخيصة الثمن ، وهو درس ظل يذكره حتى كبر ..

وفيما بعد تحكي القصة كيف أن الأصدقاء تفرقت بهم السبل .. ذهب (فرانكنشتاين) إلى ألمانيا ليدرس العلوم في (إنجولشتاد) ، وكما هو الحال مع القصص دائمًا يتوصل إلى سر الأسرار بينما هو مازال طالبًا .. كأن الأمور بهذه البساطة ..

ويتجه (هنري) ـ وهو بالمناسبة راوي القصة ـ من (جنيف) إلى ألمانيا لزيارة صديق طفولته ، فيجده قد صار غريب الأطوار يداري سرًا مروعًا

لا يرحب بالكلام عنه .. إن للفتى معملا ، وهذا المعمل يتركز حول ما يشبه حوض الاستحمام الذي تكتشف ـ بعد تدقيق النظر ـ أنه يحوي أجزاء من اللحم البشري ، وما هو أقرب إلى جثة شبه متحللة تسبح في مادة حافظة ..

وتبدأ التجربة الرهيبة التي يحاول فيها (فرانكنشتاين) أن يبعث الحياة في جسد هذا الكيان الذي قام بتلفيقه من بقايا جثث سرقها من المشارح ، والذي حرص على جعله جميلا كرسوم الفنانين العظام .. ويرى (فرانكنشتاين) أن الأمر سهل شبيه بما نقوم به حين تتعطل الساعة وكل أجزائها سليمة ، من ثم نهزها مرتين فتعود إلى الدوران ، واليد العملاقة التي ستهز هذه الجثة هنا هي الصاعقة الكهربية ..

كانت تجربة (بنيامين فرانكلين)(*) الأمريكي مع

(*) بالمناسبة ، يعتقد عدد كبير من النقاد أن (ماري) اشتقت اسم (فرانكنشتاين) من اسم (فرانكلين) الذي ألهمتها تجاربه على الكهرباء والصواعق هذه القصة ..

البرق قد أحدثت دوياً كبيراً ، وبدا للناس وقتها أن كل المشاكل يمكن حلها بمجرد تطيير طائرة ورقية وسط عاصفة رعدية .. راجع قصة (عرين الدودة البيضاء) لـ (برام ستوكر) على سبيل المثال ..

افترضت (ماري شيللي) الشيء ذاته ، وهكذا قام (فرانكنشتاين) بتمرير تيار كهربي مروع في جسد الكائن .. لقد استطاعت السينما الأمريكية أن تخلد هذا المشهد في ذهن كل من رأى فيلم (فرانكنشتاين) عام ١٩٣١ ، والأجزاء التي تلته ، وصارت هذه هي مفردات الكلام عن (فرانكنشتاين) التي لا يمكن أن تتحدث عنه من دونها ، خاصة مع المكياج الخالد الذي يذكره الجميع للكائن ، والأداء الخارق لـ (بوريس كارلوف) من تحت تلك القناع الجامد ، والمؤثرات الخاصة الفريدة لـ (ستريكفادين) ..

وهنا يحدث المشهد الذي تكرر كثيراً في كل أفلام الرعب : الكائن لا ينهض .. من ثم يذهب الصديقان للنوم شاعرين بخيبة أمل ، لكن بعد أن ينام

(فرانكنشتاين) وضيفه يستيقظان قبل الفجر بقليل على المسخ ، وهو يزيح الستائر ليدخل غرفة نومهما !

لقد نجحت التجربة !

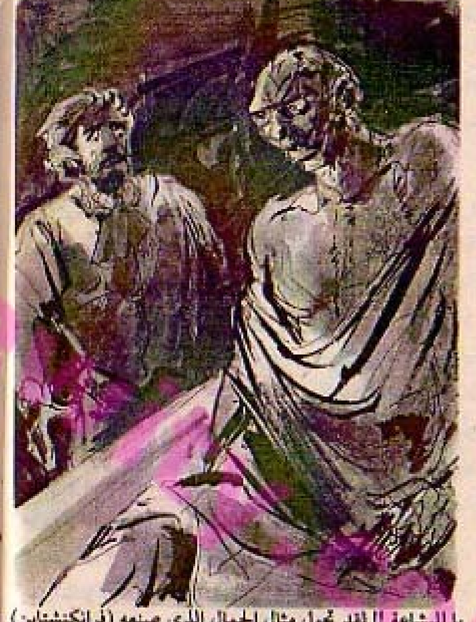
يا للبشاعة !! لقد تحول مثال الجمال الذي صنعه (فرانكنشتاين) إلى عجينة قبيحة مريعة أصابه الهلع لرؤيتها .. وهنا يتصرف تصرفاً غير عادي : يطرد المخلوق في اشمئزاز من قبحه معتبرا التجربة فاشلة ، غير مبال بحيرة الأخير وعدم فهمه لما يحدث .. هذا يذكرنا بالكلب الذي يلعب الشطرنج ، وبرغم هذا لا يبدي صاحبه حماسة لأنه هزم الكلب في أربعة أدوار من سبعة !

هنا تبدأ أحداث القصة الحقيقية .. إن المخلوق الذي لا اسم له على عكس ما هو شائع ، والذي طرد من دار صانعه ، يجوب الطرقات ليلاً ويغادر المدينة ليعمل لدى أسرة حطابين كريمة لا تعرف شيئاً عن سره .. فقط تحسبه عابر سبيل بشع الخلقة ..

لكن الكائن مصمم على الانتقام من صانعه الذى تخلى عنه دون جريرة منه ، وهو يعرف كيف يجد (فرانكنشتاين) وكيف يعذبه بقتل كل من يحب .. يقتل أخاه (ويليام) ويقتل عروس (فرانكنشتاين) (إليزابث) ، ثم يرغمه على صنع امرأة من طرازه الذى يثير الهلع فى القلوب كى يتزوجها .. لكن (فرانكنشتاين) لم يستطع ببساطة أن يصلح أخطاءه بخطأ جديد من الطراز ذاته ..

لقد كان انتقام المسخ متوحشا لا يبقى ولا يذر ، وفى النهاية يتصاعد الصراع إلى ذروة مهيبة فوق ثلوج الشمال ، حيث يحترق العالم والمسخ معًا .. المخترع والاختراع .. الصانع والمصنوع ..

ولقد قدمت السينما العالمية ـ كما قلنا ـ القصة مرارًا ، وأمكن للنقاد أن يقسموا هذه الأفلام إلى قسمين متباينين : مسخ (فرانكنشتاين) الخاص بشركة (يونيفرسال) الحزين الذى جرحت عاطفة البنوة لديه فانتقم ، ومسخ (فرانكنشتاين) لشركة (هامر) الذى هو كتلة من الرعب والدمار تمشى على قدمين ..



يا للبشاعة !! لقد تحول مثال الجمال الذى صنعه (فرانكنشتاين) إلى عجينة قبيحة مريعة أصابه الهلع لرؤيتها ..

لكن كل هذه الأفلام كانت دائمًا تركن إلى منعطف طفولى بعض الشىء .. إن (فرانكنشتاين) كان بحاجة إلى مخ آدمى ، وهكذا سرق مخًا من مشرحة المستشفى غير عالم أنه مخ مجنون .. هكذا تصير الأمور واضحة ، ويكون لدينا مبرر صبيانى سخيف لجنون الوحش ، وكأن (فرانكنشتاين) لو أحسن الانتقاء لسارت الأمور كما يجب .. وهذا ببساطة يفقد القصة كل جمالها الرومانسى القاسى : الوحش صار قاسيًا لأن أباه - (فرانكنشتاين) - قد تخلى عنه فى اشمئزاز ..

الحقيقة أن أسطورة (فرانكنشتاين) هى خيال جامح أكثر من اللازم ، سيئ الأدب وقح ، يفترض أن الإنسان - بشىء من الجهد العلمى - يمكن أن يخلق الحياة .. هذا كاف لرفض الأسطورة طبعًا ، لكنك لا تستطيع قراءة (فرانكنشتاين) دون أن تنظر إلى الظروف التى أوجدتها .. ظروف الثورة العلمية الشاملة التى افتتن بها الأدباء قبل العلماء ، وصاحبت

وثبات غير عادية فى مجال العلوم البيولوجية بالذات : اكتشاف الجراثيم .. اكتشاف الخلية .. الموجات الكهرومغناطيسية .. الراديوم وأشعة X .. كان الإنسان منتشيًا وحسب أنه عرف الإجابة عن كل الأسئلة ..

* * *

أما عن كتابة القصة ، فتلك قصة أخرى :

فى صيف ١٨١٦ كانت (مارى شيللى) فى (جنيف) بـ (سويسرا) ، وكان معها زوجها (شيللى) ولورد (بيرون) الشاعر الإنجليزى الشهير غريب الأطوار .. وكانت الفيلا التى أقاموا فيها هى ذات الفيلا التى عاش فيها (ملتون) مؤلف (الفردوس المفقود) .. على مرمى حجر من محل إقامة (جان جاك روسو) نفسه ، وكانت (مارى) تعتبر هذا المكان مقدسًا ..

كانت شديدة التأثر بـ (الفردوس المفقود) و (تحولات) (أوفيد) التى قرأتها منذ عام .. وفيها قصة (بروميثيوس) فى الأساطير الإغريقية الذى سرق النار وأهداها لبنى الإنسان ..

في عام ١٨١٦ قرأت كتاب (روسو) (إميل) ولم تنس عبارة :

- « لقد خلق الله الأشياء خيرة ، لكن الإنسان عبث بها وأفسدها .. »

لا بد أن هذا هو الجو العقلي الذي كانت فيه قبل أن تفكر في روايتها هذه ، أما عن الجو النفسي فسوف نعرفه بالتفصيل بعد قليل ..

بدأت العطلة بداية طيبة ثم سرعان ما انقلب الجو عاصفًا كأنه النذير ، وبدأت أمطار غير متوقعة ، ويقال إن هذا كان بسبب ثورة بركان (تامبورا) في (إندونيسيا) .. وفي ليلة رهيبة أمضى (شيللي) وزوجته الأمسية مع لورد (بيرون) وطبيبه الخاص (بوليدوري) في فيلا (ديوداتي) ، وراحوا يتسلون حتى تنتهي العاصفة بمجموعة من قصص الرعب الألمانية التي تدعى (فانتازماجوريانا) ، وعلى طريقة حلقات الرعب الخاصة بنا تحدى (بيرون) الموجودين لكتابة قصة رعب فورية من وحي الجو .. وكان أهم ما كتب

في تلك الأمسية هي قصة (مصاصة الدماء) لـ (بوليدوري) ، وهي قصة صارت شهيرة جدًا فيما بعد .. أما (ماري) فلم تجد ما تكتبه ، وأعلنت أنها لا تجد إلهامًا ..

وبعد يومين من المحاولة سمعت الرجال يتحدثون عن محاولة العلماء لتمرير التيار الكهربي في جثة آدمية ، لذا دخلت الفراش في تلك الليلة وقد بدأ الكابوس يحتشد في ذهنها ..

« رأيت طالب الطب الشاحب يركع جوار الشيء الذي قام بتجميعه .. رأيت شبح رجل ممدد تبدو عليه أمارات الحياة .. هذا يفزع الطالب الذي كان يتمنى لو لم ينهض الشيء .. يفتح عينيه ليرى الشيء يقف جوار فراشه ويزيح الستائر المحيطة به .. »

وفي الصباح التالي بدأت (ماري) كتابة قصتها لتنشرها في عام ١٨١٨ ..

يرى كثيرون أن رواية (فرانكنشتاين) تناقش - بعد تجريدها مما فيها من رعب - مولد طفل من دون

امرأة .. يجب أن نذكر هنا أن (فرانكنشتاين) ظل يجرى تجاربه تسعة أشهر .. فعمله هو الرحم الذكرى الذى حاول أن يوجد طفلاً فيه .. وتظل هذه إحدى الطرق المعروفة لقراءة الرواية ، وهذا يعكس مخاوف (مارى شيللى) من الأمومة والحمل وقلقها بصدد قدرتها على الإنجاب ثانية ، لقد فقدت طفلتها الأولى فى أثناء نومها .. كانت قد صحت فى منتصف الليل لترضعها ، وحسبتها نائمة بسبب هدوئها المريب لكنها وجدتها ميتة ..

والقصة تناقش أعتى مخاوف الأبوة والأمومة : هل يقتلنى طفلى فى أثناء ولادته ؟ وماذا لو وُلد طفلى مشوهًا ؟ هل سأظل أحبه ؟

ربما كان الطفل فى الرواية ـ المسخ ـ يرمز للعمل الأدبى .. إن من قرأ سونتات (شكسبير) يعرف كيف يُقارن العمل الكتابى بالطفل فى محاولة الإنسان اليائسة للبحث عن الخلود .. كلاهما نوع من تخليد الذكر ..

* * *

كانت (مارى شيللى) عبقرية ، وقد تركت لنا تراثًا هائلاً من الرعب الذى لم يسبقها أحد إليه .. لكن الأسطورة التى قدمتها ذات حساسية خاصة تجعلها ذات مذاق مرير فى الفم ..

كانت (مارى شيللى) عبقرية ، مثل بطلها (فرانكنشتاين) ، وكان المسخ تعس الحظ ، فما دورى أنا فى كل هذا ؟

٢-أوراق منسية ..

هل حقًا لم أحك لكم قصتى مع الدكتور (بيتر فرانكنشتاين) ؟

غريب هذا ! إن شرود الذهن قد يؤدى لأغرب النتائج ، لكنى لم أحسب أن الأمور قد تصل لهذا السوء ..

هل تتشككون فى وقائع تلك القصة ؟ هل تسخرون منى؟ لا تنكروا هذا و لا تتهمونى بالبارانويا .. أنا أعرف كما تعرفون أسلوب الشباب فى السخرية ، والنظرات التحتية والتعليقات الخفيضة التى لا يمكن تبين مصدرها .. أسلوب المشاغبين فى المدارس ، حين ينهمك مدرس الجغرافيا فى رسم خارطة (الصين) على لوح الكتابة ويعطيكم ظهره .. حسن ! لو كنتم تتشككون فها هى ذى الأوراق كلها أمامكم .. الوقائع كاملة ، وجوارها بعض ملحوظات كتبتها بخط اليد ..

أنا لم أكذب عليكم قط .. ولماذا أكذب ؟ لقد ازددت شيخوخة وحكمة ومللا ، وزهدت اللذات البسيطة التى تعرفها جميعًا .. لم أعد راغبًا فى أن أخترع الأحداث لأثير شغف أحد .. ولو أثارت الأحداث التالية اهتمامكم فاعلموا أنها أحداث حقيقية تمامًا لا فضل لى فيها .. ها هى ذى الأوراق .. ها هو ذا الجمل والجمّال كما يقولون ..

هذه الخارطة ؟ إنها خارطة (سويسرا) يا شباب .. لا توجد دول كثيرة تحدّها ألمانيا وفرنسا شمالاً ، وإيطاليا جنوبًا ، وفرنسا غربًا ، والنمسا شرقًا .. لو لم تكن هذه خارطة (سويسرا) لكان علم الجغرافيا فى وضع مقلق بعض الشىء ..

تعرفون أننى زرت (سويسرا) من قبل فى مغامرة كانت من قبيل الهلاوس ، وقد جلبت علينا عاصفة من الحنق لم تنته بعد .. هذه القصة هى (أسطورة الغرباء) ..

اليوم أعود إلى هناك ، ولكن كونوا مطمئنين .. ليس من الضرورى أن تكون كل القصص التى تقع فى

(سويسرا) سخيفة أو مخيبة للآمال .. من يدرى ؟
لربما حدثت هذه القصة المثيرة أو تلك ..سأقدم لكم
اليوم قصة مسلية إلى حد ما برغم أن أحداثها دارت
فى (سويسرا) ..

بدأت القصة فى صيف عام ١٩٧٢ ، وكنت مدعواً
إلى أحد مؤتمرات منظمة الصحة العالمية .. كانت لى
ورقة بحثية متوسطة القيمة تمت الموافقة عليها
برغم أننى لم أتوقع ذلك .. أحياناً قد يعجب هؤلاء
القوم بمواضيع تافهة أو سخيفة .. وهكذا حزمت
حقائبى وخيامى وانطلقت إلى هناك .. وكالعادة كان
لقائى مع الأستاذ العظيم (فردريك شوندر) الذى
لا أعرف سواه فى (سويسرا) كلها ..

هل تذكرون الرجل ؟ لن أضيع الوقت فى وصفه ..
إنه يبدو كأستاذ سويسرى فى مشتقات الدم .. له كل
مزاياهم وعيوبهم .. هل رأيتم واحداً من قبل ؟ هذا
سيجعل المهمة أسهل بالنسبة لى ..

التقينا فى (جنيف) .. وكانت لنا فى كواليس
المؤتمر مناقشات عن كل شىء ، فالرجل واسع العلم

له إلمام كبير بالثقافة الإنسانية ، كما أنه يعرف الكثير
عن الإسلام ، وهناك بالمناسبة عدد لا بأس به من
المسلمين فى (سويسرا) ؛ وإن كانت الديانة الأكثر
انتشاراً هى ديانة الرومان الكاثوليك .. لا ليست
البروتستانتية كما يحسب البعض ..

قال لى (شوندر) فى معرض حديثنا عن مغامراتى
السابقة :

ـ « أنا قد كففت من الزمن عن الاعتقاد بوجود قوى
لا نراها .. لقد علمنا الأقدمون أن الحقيقة العلمية
يجب أن تكون قابلة للقياس والتفسير والتكرار .. »

ابتسمت فى أدب ، وقلت :

ـ « .. وهو تلميح رقيق إلى أننى ـ عدم المؤاخذة ـ
مصاب فى كل ما حكيت ! »

قال بتهذيب مماثل :

ـ « أو مخدوع .. ربما أنت ضحية لمن هو أذكى
وأحوط .. كثيرون حضروا جلسات تحضير أرواح
وخرجوا منها ليقسموا أن الأمر كان حقيقيًا ، وبعد
هذا يدركون أنهم كانوا مخدوعين .. »

- « وهو تلميح رقيق إلى أننى أحمق فى كل ما حكيت ! »

- « لا بد من أن يتهم المرء بشىء فى حياته مادام متفاعلاً مع العالم الخارجى .. والأحمق أدنى إلى الشرف من النصاب على كل حال ! »

هنا جاءت سكرتيرته الحسناء (مارتا) التى لم أنس لها محاولة خداعى كى أنضم إلى الغرباء ، حتى لو كان هذا فى كابوس .. هل تذكرون (مارتا) ذات الجمال الآرى لكنه ليس آريًا إلى حد السماجة ؟

قالت (مارتا) وهى تتفحص مفكرتها ، ولوح كتابة من الذى يتم تثبيت مشبك فى أعلاه :

- « ليس لديك مواعيد أخرى اليوم يا هر (شوندر) .. لقد انتهى ما هو مطلوب منك نحو المؤتمر .. هل ترغب فى قضاء بقية اليوم فى إجازة ؟ »

هز رأسه فى رضا كما يفعل أى أستاذ سويسرى فى مشتقات الدم تخبره سكرتيرته أن جدوله اليومى خال ، وقال لى :

- « سأدعوك إلى العشاء يا (رفعت) .. هناك بعض أمور فى حديثنا لم ننته منها بعد .. »

وكما يفعل أى شخص آخر يدعوه أستاذ سويسرى فى مشتقات الدم ، قبلت الدعوة ، وكانت (مارتا) معنا كالعادة .. لقد اعتدت هذا هنا .. السكرتيرة أحيانًا ليست لها حياة خاصة ، بل هى ترافق رئيسها فى كل مكان وتنسق كل مواعيده وتكتب كل ما يقول كأنه إلهام علوى .. ولهذا ثمنه طبعًا .. أما عن أسرة الأستاذ فكانت فى (بازل) كما لا بد أنكم تعرفون ..

كان اسم المطعم مخيفًا به ذلك العدد من الشينات والفاءات الشبيهة بنجوم الجودة السياحية ، ومن الداخل كان فاخرًا من الطراز الذى يشعرك بتضاؤل حقيقى .. سادة شديدو الرقى من طراز رجال العصابات والمختلسين والأفاقين ، جاءوا من أطراف المعمورة كى يطمئنوا على أن الحكومة السويسرية لم تستول على أرصدتهم بعد .. البعض عاطل بالوراثة والبعض كافح حتى صار عاطلا .. للأسف أنا لم أسرق مصرفًا أو أكون ثروة من المخدرات أو إرث عمى الدوق ،

٣- هذا الرجل يزعم..

كنا قد اعتدنا وجود (بيتر فرانكنشتاين) فلم يعد اسمه يثير دهشتنا .. الطبيب الألمانى الشرقى الشاب الذى يحمل اسمًا غريبًا حقًا لكنهم لم يندهشوا له هنا ، ووجدت أنه من السخف أو قلة الذوق أن ألاحظ هذا وحدى .. إن اسم (فرانكنشتاين) ليس فريدًا ولم تخترعه (مارى شيللى) طبعًا .. لقد كانت هناك قلعة شهيرة بهذا الاسم فى ألمانيا فى القرون الوسطى ، عاش فيها كيميائى غريب الأطوار .. ويزعم الأخ (بيتر فرانكنشتاين) أنه من نسل هذا الكيميائى ..

كان (بيتر فرانكنشتاين) جراحًا بارعًا فى السابق ، ثم تخصص - كما يبدو - فى البيولوجيا الجزيئية .. ومعظم ما يقول ألغاز لا يمكن فهمها أو تصديقها ..

كان من المدعوين إلى المؤتمر ، وقد لفت نظرى من البداية بمظهره الغريب .. له شعر (أينشتاين)

الأشعث وعيناه الحنونان المندهشتان .. العينان اللتان سرقهما (كارلو رامبالدى)(*) بعد أعوام ليجعلهما عينى (إى تى) المخلوق الفضائى الشهير اللطيف .. كان (فرانكنشتاين) مشعثًا مشوش الثياب ، لا يكف عن الشرود وارتكاب الأخطاء الفادحة ، وكان هذا يعطيه فتنة خاصة مما يليق بالعلماء ..

حاولت تعرفه مرارًا لكنه كان من النوع ذى العقل البخارى الذى لا يستقر أبدًا ، ولا يلاحظ شيئًا .. عبقريته جعلته أقرب إلى المجاذيب ، ولولا الحياء لراح اللعاب يسيل من شدقيه وهو يجول فى أروقة المؤتمر ..

أذكر الورقة التى قدمها جيدًا .. فقد فعل ذلك فى يوم ثلاثاء .. كنا فى الساعات الناعسة التى تسبق العشاء ، حيث بلغ منا الإرهاق مبلغه ولم تعد نطيق سماع حرف عن العلم ..

(*) كارلو رامبالدى : إيطالى تخصص فى المؤثرات الخاصة السينمائية ، وله أكبر عدد من الوحوش فى أفلام الرعب ..

فى هذه اللحظة يظهر الأخ (فرانكنشتاين) بشكله الغريب واسمه الأغرب ، ونظرياته الأشد غرابة .. يظهر ليقدم ورقة علمية اسمها (إعادة الحياة إلى الخلايا المكونة للدم باستخدام ليزر الـ ND : Yag) .. ولم تكن وقتها نعرف شيئًا عن الليزر .. كنا نعرف أنه معجزة لكن إلى أى حد بالضبط ؟ وهكذا بدأنا نتحمس ونسينا أننا لم نعد نطيق حرفًا آخر ..

ظهر على المنصة ، وأسقط مجموعة أوراقه فانحنى يجمعها فقط ليضرب سكرتيرة المؤتمر برأسه فى ذقنها ، والخلاصة أنه كان أدنى إلى (الدهولة) – معذرة للتعبير – مما جعله قريبًا بحق إلى قلبى ، ووجدت بيننا سمات مشتركة لا بأس بها .. بالطبع كانت شرائحه الضوئية مرتبة بشكل خطأ ، ولم يكن معه مؤشر ، أما عن حالة منديله الذى أخرجه ليجفف عرقه فأجارك الله !

إن العلماء يحبون أن يظهروا بمظهر رهبان العلم الشاردين .. حتى الفلاسفة يعانون من هذا الولع ،

وقد حكى المخرج (محمد كريم) عن شرود فيلسوفنا (توفيق الحكيم) وكيف أنه ليس خالصًا تمامًا ، بل فيه جزء لا بأس به من التظاهر ، حبًا فى وصف (الفيلسوف الشارد) .. وكان هذا الشرود الفلسفى يتلاشى دومًا حين تدخل أول فتاة جميلة القاعة ..

لكن (فرانكنشتاين) كان شاردًا بحق .. لا تظاهر فى الأمر .. وحين بدأ يتكلم راحت عيناه تلتمعان فى جنون وراح اللعاب يتطاير من شدقيه ، وأضفت لهجته الألمانية تأثيرًا ممتعًا كالعلماء المجانين الذين تراهم فى القصص المصورة ..

تكلم عن تجربة غريبة قام بها على الخلايا المكونة للدم التى قتلها باستخدام جرعات عالية من خردل النتروجين ، وبعد فترة لا بأس بها قام بتعريضها لجرعات من أشعة الليزر ، وقد بدأت علامات الحياة تظهر على تلك الخلايا ، واستعادت معدلاتها فى التمثيل الحيوى ، وعضيات الخلية ..

وكان مع الرجل عدد لا بأس به من الصور الفوتوغرافية التى التقطت تحت المجهر .. طبعًا

يستحيل إثبات صدقه من كذبه لأن ترتيب الصور هو المفتاح الوحيد هنا .. ضع صورة الخلية الميتة بعد صورة الخلية الحية تكن عندك قصة منطقية .. ضع صورة الخلية الحية بعد صورة الخلية الميتة تكن عندك أسطورة .. من يملك الترتيب الصحيح ومن يملك إثبات هذا الكلام ؟ لا أحد .. لابد من لجنة تراقب هذه التجارب عن كثب وتضع الصور المرقمة المؤرخة فى حوزتها .. عدا هذا لا إثبات هنالك ..

لكن العلماء الجالسين لم يرحموه ، وكان منهم عدد لا بأس به من منحرفى المزاج الذين أرهقهم الصداع وسماع كل ما قيل اليوم ، وكان منهم الكاثوليكى الذى لا يقبل مجرد سماع هذه الترهات ، لذا جعلوا منه فريسة سهلة لهم .. بالنسبة لى لم أجد مشكلة فى الأمر .. فالرجل نصاب أولاً .. هذه نقطة .. النقطة الثانية هى أن كل ما يحدث من تغيرات يحدث لخلية خلقها الله (تعالى) .. الرجل لم يزعم - لا سمح الله - أنه خلق الخلية أو أنه خلق حياتها .. الرجل يعمل



وكان مع الرجل عدد لا بأس به من الصور الفوتوغرافية التى التقطت تحت المجهر ..

على أشياء موجودة بالفعل ، وتوقفت عن التمثيل الحيوى لفترة قصيرة وبشكل مؤقت ..

هنا قال (فرانكنشتاين) فى حماس ويده تهتز انفعالا :

- « ليس هذا مستحيل التخيل يا سادة ! إن الأمر شبيه بما تقوم به حين تتعطل الساعة وكل أجزائها سليمة ، من ثم تهزها مرتين فتعود إلى الدوران .. اليد العملاقة التى ستهز هذه الخلية هنا هى الليزر! »

هنا شعرت برجفة فى عروقى .. هذه الكلمات قالها (فرانكنشتاين) بالحرف تقريبًا فى قصة (مارى شيللى) التى تحمل اسمه .. هذا الرجل يحسب نفسه (فكتور فرانكنشتاين) .. هذه حالة فصام واضحة لا شك فيها .. أقسم على هذا ...

تصاعدت صيحات الاستنكار ، وتذكرت أيام الماضى المباركة حين كان العلماء المعارضون يصيحون (هووووه ! هرطيييييق !) ويضربون بقبضاتهم على المناضد ويبصقون على (فرويد) أو (داروين) ..

اليوم لم يعد أحد يجرؤ على هذا .. لابد من تمالك الأعصاب والتعامل بشكل متحضر للأسف ..

فى غيظ صاح (فرانكنشتاين) وهو يضرب المنضدة بدلاً منهم :

- « أنتم مجموعة من ضيقى التفكير تتظاهرون بأنكم لستم كذلك ! قولوا لى فارقًا واحدًا بينكم وبين من سخروا من (باستير) حين تكلم عن وجود البكتريا ، أو من اتهموا (كوبرنيكوس) بالهرطقة .. »

لم تتحسن الأمور كثيرًا بكلمته هذه ، وقال أحدهم :

- « قل لنا أنت فارقًا واحدًا بينك وبين (لومستراتيوس) أو (ميسمر) أو كل العباقرة الذين أحالوا الرصاص إلى ذهب ! »

- « لا أخفى أننى أمقت بطريقتكم التفكير .. »

- « ولا نخفى أننا لا نثق بطريقتك العلمية .. »

هنا نهض الدكتور (شوندر) وهو كما نعرف يتمتع بشخصية قوية تهوى التدخل فى كل شىء ، وقال بعد ما دنا من مكبر الصوت :

ـ « لست ميالا إلى تصديق الأشياء المماثلة ، لكنى أرى أن هذا الموضوع جد خطير وشديد الحساسية ، ويدفعنى هذا دفعًا إلى طلب إثبات أن الصور الفوتوغرافية هى أرقى وسيلة خداع اخترعها الإنسان ، وأراها لا تثبت شيئًا فى هذه الحالة بالذات أكثر من الكلام الشفوى .. لذا أقترح أن يرشح لنا البروفسور (فرانكنشتاين) من يتابع أبحاثه و يقيمها بشكل حيادى ! »

هنا قال أحد الجالسين العصبيين دومًا :

ـ « ليس عليه أن يختار بل نختار نحن .. حتى الحواة لا يختارون بأنفسهم المشاهدين الذين يشاركونهم الألعاب .. »

قال (شونلدر) وهو يفتش بين الجالسين فى شغف :

ـ « لو سمحتم لى فأنا أرشح زميلا كان له اهتمام كبير بهذه الأمور، وأحسبه ما زال مهتمًا .. هاهو ذا ! الدكتور (إسماعيل رفعت) ! »

تصاعدت همهمات وضجيج ، وراح الجميع ينظرون إلى مكان جلوسى فى كراهية لم أدر لها سببًا ، كأننى بالفعل برهنت على أنهم مخطئون ..

أما أنا فشعرت أن الدم سينزف من خدى من فرط الخجل والارتباك .. مالى أنا وهذا الموضوع ؟ من أنا حتى أكلف بمراقبة أبحاث عالم له ثقله كهذا ؟ على أن أشد ما ضايقنى هو أن اسمى صار مقترنًا بالخرافة دومًا .. ضع فى أى مكان نصابًا يزعم أن روح خالته تقمصت المكواة الكهربية ، عندها يتصايح الناس فى ذكاء : (رفعت إسماعيل) ! إنه يفهم فى هذه الأمور ! هاتوه حالا ! حتى كأننى صنف من الحواة ..

رفعت كفى بمعنى أننى لا أجد نفسى راغبًا فى ...... وهى إيماءة واهنة ضعيفة الشخصية قد تعنى فى الوقت ذاته (أننى فخور يا سادة بهذا الشرف) .. فقال (شونلدر) فى مرح :

ـ « هذا ما كنت أتوقعه ! نحن نشكرك يا دكتور (إسماعيل) وننتظر تقريرك فى شغف ! »

لم أقاوم أكثر، وكالعادة كانت هذه بداية مشاكلى ..

* * *

قلت للدكتور (شوندر) وأنا أمسح فمى بالمنشفة (وأرجو ألا تكون هذه فضيحة فى هذا المكان) :

- « بالطبع أنا مستعد لقبول تجربة ما يقول الرجل .. أعرف أننى سأعود لأعلن أنه كذب ، لكنى بالتأكيد لن أقول هذا قبل أن أجرب .. أنا أضمن لك هذا .. »

- « فى هذا مضيعة للوقت .. لا بد من بعض الانتقاء .. »

ثم قال وهو ينظر إلى ما وراء كتفى :

- « صه ! هاهو ذا العصفور قادم باتجاهنا .. أعتقد أننى سأجرى التعارف الآن ، فلا أظن أن الرجل لاحظ وجودك فى أثناء المؤتمر .. »

لم يكن هذا غريبًا ، فالرجل لا يبدو قادرًا على ملاحظة خرتيت فى غرفة نومه لو كان هذا ممكنًا .. وأنا بطبعى نمط فريد من البشر يستحيل أن تقتحمه

العين أو تمر به مر الكرام .. إن من رآنى يذكرنى حتى هذه اللحظة باعتبارى حالة متفردة من القبح والنحول واعتلال الصحة .. لكن (بيتر فرانكنشتاين) لم يرنى قط ..

ناداه دكتور (شوندر) ست مرات حتى انتبه ، وبالتالى أطار صحفة عليها المشروبات يحملها نادل إلى إحدى الموائد ، وأسقط بكوعه سيدة متأنقة كانت تلعب المصارعة التايلاندية ، ثم تعثر فى رباط حذائه فطار إلى مائدتنا ليسقط فى حجرى بالذات ..

معجزة المعجزات أن يظل هذا الرجل حيًا حتى السن التى بلغها ..

وكان التعارف سهلا بالطبع .. ليس أسهل من تعارف رجلين أحدهما فى حجر الآخر .. وقال (شوندر) وهو يمسح ما تساقط على سترة الرجل من فضلات طعام وشراب ، ويعينه على الجلوس :

- « أرجو أن تسمح للدكتور (إسماعيل) بمعرفة الكيفية التى سيتواجد فيها معك فى أثناء تجاربك .. »

كان هذا مستفزاً طبعاً ومهيناً .. ولو كنت مكانه لأبيت أن أقبل من يفتش علىّ وعلى دقة تجاربى .. هذا أسلوب يضعه مباشرة فى الميزان .. لكن الرجل كان أكثر حماساً من أن يغضب أو يضع اعتبارات للكرامة الشخصية .. كان واثقاً من نفسه أكثر من اللازم حتى بدت له تفاهاتنا كإهانات الأطفال .. من النضج ألا نمتعض منها ..

قال (فرانكنشتاين) وهو يملأ فاه بكبد الأوز :

ـ « مم !! أنا واثق من نفسى لهذا أقبل بالتأكيد قدوم هذا الرجل ليعد علىّ أنفاسى .. ممم ! »

وقبل أن أحتجّ على هذا قال موجهاً الكلام لى :

ـ « إن لدىّ كوخاً ريفياً قرب (لوسيرن) ، وهو معدّ جيداً لتجاربى ، ولا أرى ما يمنع من أن تقبل ضيافتى إلى هناك .. »

كوخ ريفى معدّ لإجراء تجارب البيولوجيا الجزيئية ؟ هذا الرجل يمزح .. أعرف أننى أبدو أحمق لكن ليس إلى هذا الحدّ .. سألته وأنا أضغط على أعصابى :

ـ « ظننتك ألمانياً ، فما دور (سويسرا) فى الموضوع ؟ »

ـ « إننى أعمل هنا من فترة لا بأس بها ، فجو ألمانيا الشرقية لا يناسبنى .. إن الشيوعية لم تخلق لى .. والمشكلة هنا هى أن الجميع يهاجمنى : الغربيون يزعمون أننى مبشر ماركسى ، والماركسيون يعتبروننى مارقاً عميلاً للغرب .. »

ونظر حوله فى حذر وهمس :

ـ « إنهم يعدون علىّ أنفاسى .. لكنى محتم بالحكومة السويسرية وحرية البحث العلمى .. ولسوف تجد أن تجاربى مثيرة حقاً يا بروفسور (مكسويل) »

ـ « (إسماعيل) ! »

قلتها فى ضيق .. لكنه واصل كلامه :

ـ « ماذا تعرف عن الليزر ؟ »

ـ « لا أعرف عنه شيئاً .. أعرف عنه بالضبط ما تعرفه خالتى عن وقود الصواريخ ! »

اتسعت عيناه انبهارًا وهتف :

ـ « خالتك خبيرة في وقود الصواريخ ؟ يا للتقدم العلمي في بلدك ! »

شعرت باستمتاع حقيقي ، وقلت لنفسي إن أيامي مع هذا الأحمق هي خبرة لا تنسى .. متعة حقيقية المفترض أن أدفع من أجلها مالاً .. وواصلت سماع ما يقول في تلذذ .

رحت أدير المعلومات التي قالها في رأسي .. طبعًا لم أتذكرها وقتها ولم ترسخ في ذهني إلا بعد أعوام حين قرأت عن الليزر أكثر من هذا ، واستطعت أن أفهم ما كان يقوله وقتها ، وفي حيرة سألته :

ـ « هل تفهم في هذه الأمور حقًا ؟ لابد من خبير فيزياء معك في هذا العمل بالغ التعقيد .. »

ابتسم في ثقة ، وابتلع ما بكأسه ثم وضعه على المائدة فأوقع ملعقتين على الأرض ، وقال :

ـ « بالطبع لست وحدي .. مع أختي (أجاثا فرانكنشتاين) وهي خبيرة في فيزياء الضوء .. »

قلت لنفسي وأنا أتبادل نظرة صامتة مع د. (شوندر) : مرحبًا بك يا (رفعت) في أسرة المخابيل هذه .. كلهم (فرانكنشتاين) وكلهم يعمل في أشياء غريبة جديرة بأسمائهم الرهيبة ..

قال لي (فرانكنشتاين) وقد عاد إلى شروده :

ـ « يمكننا الرحيل بعد غد ، فقد انتهى ما كان يثير شغفي في المؤتمر .. ما بقي هو هراء .. »

ونظرت إلى (شوندر) فابتسم لي بمعنى أن هذا قدري وعلي أن أقبله ، على أنه قال لي بعد ما انصرف الأستاذ المخبول :

ـ « خذ كل حذر ، فهذا الرجل مولع بإثارة دهشة من حوله ، ولا أزعم أنه كاذب ، لكنه سريع الوثب إلى الاستنتاجات ، غير دقيق في طريقته العلمية .. سيخوض في مناطق صعبة نوعًا .. »

قلت له ما معناه أنني كبرت الآن ولم يعد من السهل خداعي ، ثم اتجهت إلى موظف الاستقبال لأطلب منه ـ بالإنجليزية طبعًا ـ أن ينهي حجزي بالفندق

لأنى متوجه إلى (لوسيرن) بعد غد ؛ لأكون مع البروفسور (فرانكنشتاين) العظيم .. قال لى الموظف باسمًا :

ـ « هل تتحدث عن البروفسور المجنون منكوش الشعر الشبيه بعلماء القصص المصورة ؟ هذا الرجل قد ورث من اسمه شيئًا .. ولو كنت مكانك لحاذرت منه يا سيدى ! »

أثارت دهشتي طريقته الوقحة قليلا في الكلام عن الرجل ، خاصة والبروفسور ليس بيننا ، وليس من عادة موظفى الفنادق أن يسخروا علانية من النزلاء خاصة فى فندق مهيب كهذا ..

قال وقد تبين حيرتى :

ـ « لقد سألنى منذ يومين عن مقبرة أو مشرحة قريبة ! ليس هذا سؤالا معتادًا ولا محببًا هنا .. خاصة لو رأيت اللهفة فى عينيه وهو يسألنى .. »

ـ « الأذواق تتباين كما تعلم .. أنا عن نفسى مولع بمدابغ الجلود ، ولا أدرى سبب هذا الولع العجيب .. صدقنى ! »

تبدل وجهه فضحكت لأظهر له أننى أمزح ، ثم هززت رأسى وابتعدت ...

حقًا لن يكون (فرانكنشتاين) سهل المعاشرة ..

* * *

٤ـ فى (لوسيرن) ..

(لوسيرن) .. المزار السياحى الكبير فى (سويسرا) ..

هل تريد أن تعرف عنها شيئاً ؟ أنا مثلك لا أحب الجغرافيا وأجدها علماً شديد الإملال ، لكنى لا أنكر لحظة أهميتها ، ولو لم تكن الجغرافيا لاضطر الناس إلى اختراعها ..

(لوسيرن) مدينة فى وسط (سويسرا) حيث يلتقى نهر كبير مع بحيرة تدعى (لوسيرن) ، وقد تبلورت المدينة حول دير بنى فى القرن الثامن .. والمدينة مركز صناعى كبير للمنسوجات والكيماويات ومركز تجارة ضخم منذ إنشائها .. وقد اشتهرت بالحديقة الزجاجية ؛ وهى من بقايا عصر الجليد ، وأسد (لوسيرن) الذى نحته من الحجر نحات دنماركى .. وهو تخليد للحارس السويسرى الذى مات وهو يدافع عن قصر (التويلرى) فى أثناء الثورة الفرنسية ..

وصلت إلى هناك مع الدكتور المجنون (فرانكنشتاين) الذى لا بد أنكم تعرفونه الآن بشكل أفضل .. لم يكن رجلاً سيئاً بالواقع .. ليس من الضرورى أن تكون مجنوناً لتكون سيئاً .. كان مسلياً طيب القلب ، ولو تجاوزنا عن الحرج الذى يسببه لى من حين لآخر ، وشروده المحير الغريب ؛ لقلنا إنه لم يكن بهذا السوء ..

وفى سرى قلت لنفسى : رحمك الله يا أمى .. كيف لو عرفت أننى الآن فى سويسرا أتنزه مع البروفسور (فرانكنشتاين) شخصياً ! ولكن لا .. ما كانت أمى لتندهش لأنها لم تسمع عن (فرانكنشتاين) أصلاً ، ولا تعرف أية دلالات مخيفة للاسم .. فى الغالب ستقول لو عرفت : فليكرمك الله يا بنى أنت وكل هؤلاء الأطباء الخيرين من أمثالك !

ولم تطل إقامتنا بالمدينة الجميلة أكثر من يومين ، لأننا انتقلنا بعد هذا إلى منزل (فرانكنشتاين) الريفى الذى يبعد بضعة أميال عن (لوسيرن) .. لكنه يطل على بحيرة (لوسيرن) ذاتها ، والمشهد فى الحقيقة

جميل ، يذكرك بتلك البطاقات التى يرسلها المسافرون بالخارج لإغاظة أقاربهم الذين لم يروا أبعد من (الدلنجات) .. وخطر لى أن مكانا بهذا السحر هو مكان خال من الرعب فى الغالب .. لابد أننى لن أجد الظروف المناسبة لممارسة هوايتى المفضلة ..

كان البيت عبارة عن فيلا من طابقين ، تمتد لمساحة لا بأس بها ، وتحيط بها حديقة معتنى بها .. وتوجد درجات حجرية هابطة تقود إلى طريق مرصوف بحجارة الإسكافى ، وهذا الطريق يمتد حتى يصل إلى البحيرة وإلى قارب بمجدافين مربوط إلى مرسى صغير ..

وحين تقف عند المرسى وترفع عينيك لأعلى ، تجد أن المنزل يقع عند أطراف غابة لها طابع قصص الأطفال الأوربية تماما ، فلن يدهشك أن تجد ذات الرداء الأحمر تخرج فجأة حاملة سلتها ، أو ترى الدببة الثلاثة تمرح حتى تبرد أطباق الحلوى الخاصة

بها ، أو لربما وجدت الأخوين (جريم) اللذين قاما بتأليف أكثر هذه القصص يبحثان عن إلهام جديد ..

كان هناك خادم عجوز مهذب راح يساعدنا فى إنزال الحقائب من العربة ، وبطبيعة الحال كان يتحدث الألمانية ، وأنا لا أفهم منها إلا ثلاث كلمات فى كل جملة .. إن الألمانية هى لغة ستين فى المائة من السويسريين ، ولها هنا اشتقاق خاص غريب على السمع يسمونه (الألمانية السويسرية) أو الشفيتزرتوتش Schwyzertutsch ..

المهم أننى عرفت أن اسم الخادم هو (أدولف) - ليس (هتلر) طبعا - وكان من طراز راق ، لا يبدو أنه قاتل أو يخنق الضيوف ليلا ككل خدم القصص .. هذه نقطة مهمة تروق لى ..

أما من جاء بعد هذا فأرق شىء رأيته فى حياتى .. لاحظ أننى لم أقل أجمل بل قلت أرق .. هناك فارق واضح بين اللفظتين .. بالطبع ما كان أحد ليجرؤ على إلهام (أجاثا فرانكنشتاين) خبيرة فيزياء الضوء

ـ « يا سلام ! كنت أظنك طبيبًا أنت الآخر ! »

ـ « نعم .. نعم .. كدت أنسى .. لكنه ضعيف .. قلبها .. لم يتحمل كل هذه الانفعالات .. »

ـ « أية انفعالات ؟! يا لكما من أحمقين ! نحن لم نتبادل ثلاث كلمات ! »

صاح فى عصبية حقيقية هذه المرة ، وقد غطى شعره عينيه :

ـ « إما أن تساعدنى أو تصمت ! »

وكان الخادم قد أحضر بعض ماء فى كأس ، فصب فيه قطرات من قارورة صغيرة فى جيبه ، ثم ساعد (فرانكنشتاين) على أن يدنيه من شفتى الشابة المريضة ، فبدأت ترشفه فى شىء من حذر ، ثم أفرغت الكأس كله .. وبدأ لون شفتيها يستعيد اصفراره السابق الدال على الصحة ..

ساعدناها على دخول المنزل ، وأجلسناها على أريكة تشبه الفراش ، مما ساعدها على أن تسترخى

تمامًا ، ورحت أراقب ما يجرى فى حيرة .. إما أنها مخبولة أو مصابة بمرض عضال فى المخ أو القلب .. لكنى لم أمنع نفسى من ملاحظة أنها ازدادت جمالاً بهذا الوهن .. حقًا لقد خلق هذا الجمال الفكتورى كى يكون مريضًا دومًا .. ولسوف تكون فى أجمل صورها حين ترتدى قناع الموت ..

سألتها وقد جلست على أقرب مقعد :

ـ « ألم يصف طبيب محترم مرضك هذا باسم لاتينى ؟ »

ـ « بلى .. » ـ قالتها وهى تمسح وجهها بظهر كفها النحيلة ـ « إنه الصرع يا سيدى .. صرع بلا تشنجات ولا رغاو على الشفتين .. لكنه ... »

ولعقت شفتيها لتزيل القشور الجافة على جانبى فمها :

ـ « .. لكنه يؤدى الغرض ذاته ولسوف يقتلنى يومًا ما .. »

كان (فرانكنشتاين) مستمرًا في هرش شعر رأسه المبعثر حتى بدا كالمجاذيب تمامًا ، ثم - دون إنذار - نهض متجهًا إلى الطابق الثاني .. سمعت خطواته وهو يصعد في درج خشبي .. نظرت لها في عدم فهم ، ثم فهمت .. لقد خطرت له فكرة ما ، وهكذا - في ربع ثانية - نسي كل شيء عن الإغماء وعن قلبها الواهن وعن .. ببساطة فارقنا ليدون هذه الفكرة أو يجربها !

ما إن أدركت الفتاة أننا وحيدان حتى اتسعت عيناها رعبًا .. فيما بعد دققت النظر فأدركت أن عينيها اتسعتا لا رعبًا ولكن لتحذيري ، وقالت همسًا :

- « اسمع ! لا تكن أحمق ولا تكن طفلاً ! اهرب من هنا كأن الجحيم يطاردك .. اهرب ما دمت تقدر !! »

ثم عادت لتريح رأسها على الأريكة وتئن !

كان كل هذا متوقعًا .. الفتاة تفعل وتقول بالضبط ما تفعل وتقول مثيلاتها في دراما الرعب القوطي والفكتوري .. لا بد من أن تنفرد بالأحمق الوافد على المكان لتنذره من عواقب حماقته ..

وهكذا خطر لي أن الفتاة ليست على ما يرام .. إنها ببساطة تمثل دورًا هستيريًا ما .. يبدو أنها بدورها قرأت الكثير من روايات الرعب هذه ..

قلت لها همسًا وبغيظ لم أخفه :

- « طبعًا ستقولين لي إن أهوالاً لا يتصورها عقل تدور في قبو هذا البيت .. والذكي الوحيد هو من أسلم ساقيه للريح »

- « أنت تتكلم بلساني ! »

ثم نهضت واستندت إلى مسند الأريكة كأن الدوار أصابها ، وقالت :

- « أنت حر في اختيارك ، لكن دعني أقل لك إنك ستكون شاهدًا على ما يأباه الدين والقانون والضمير .. »

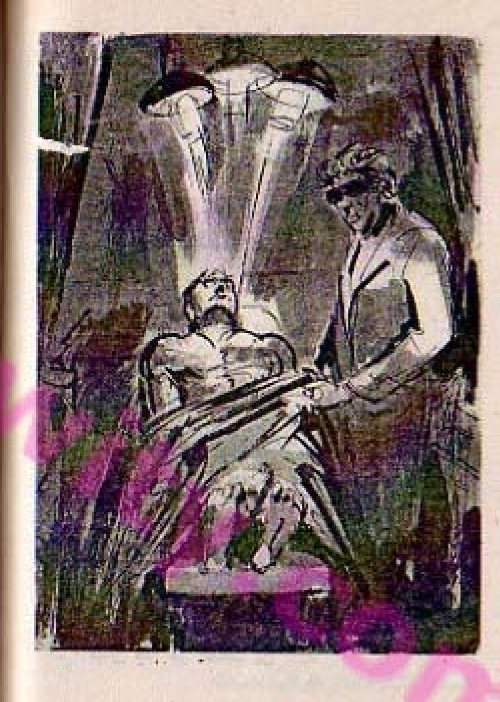
- « كل هذا الضجيج من أجل تجربة الليزر على ..... ؟ »

- « ليس هذا هو السبب بل .. »

فى اللحظة التالية عاد (فرانكنشتاين) من الطابق العلوى، وهو يحمل في يده ما يشبه المرطبان الزجاجى الضخم .. كان مليئاً بسائل أصفر رائق - أهو الفورمالين ؟ - وبه أنسجة عضوية لم أتبين كنهها ، ورأيته يتأملها فى غيظ ، ثم يصيح :

- « يا لك من حمقاء ! أنت لم تعرّضى الأنسجة بالنظام الذى اتفقنا عليه قبل سفرى .. لقد تحللت هذه !! »

ودون كلمة أخرى طوح بالمرطبان فى وجه الفتاة ، ليستقر ويتهشم على الحائط ، على بعد ثلاثين سنتيمتراً من وجهها ، ويتناثر السائل على ثيابها وبشرتها .. ورأيت قطعاً من تلك الأنسجة البشعة ملتصقة بالأريكة والجدار حول الفتاة .. المخيف أن الفتاة لم تصرخ أو تثب فارة .. بالأحرى لم تبدل من وضع وجهها لحظة .. فقط ظلت تتأمل أخاها كأنما اعتادت هذه الأمور .. واضح أن هذه الفتاة يقذف فى وجهها أكثر من مرطبان زجاجى كل أسبوع !



قلت له فى كياسة وأنا أساعدها على النهوض :

ـ « معاذ الله أن أتدخل فى هذه المحادثات الأسرية الحميمة ، لكن ألا ترى أنك تبالغ قليلاً فى معاملة هذه الفتاة ؛ التى كانت فى نوبة صرعية منذ ثلاث دقائق ؟ »

وقالت الفتاة بصوت هادئ :

ـ « أنت ظلمتنى يا (بيتر) .. لقد فعلت كما طلبت منى تمامًا لكن قانون الطبيعة أقوى منا معًا .. »

فى ضيق غمغم وهو يدور ليجلس على إحدى الأرائك :

ـ « هى شقيقتى .. وتعرف طباعى جيدًا .. تعرف كذلك أننى لا أمزح فى تجربة عمرى هذه .. »

ـ « وما هى التجربة التى تستدعى كل هذا الحماس ؟ لسنا بصدد تحطيم الذرة .. لقد فعلها (رذرفورد) إن لم تخنى الذاكرة .. »

ابتسم بخبث وتساقطت منه قطرتا عرق وهو ينهض من جديد ، وهمس :

ـ « لن نحطم الذرة .. بل سنحطم ذلك الحاجز الفاصل ما بين الموت والحياة ! » .

* * *

٥ - بعد العشاء..

كان العشاء شهيًا ..

لست خبيرًا بهذه الأطعمة السويسرية أو الألمانية ، ومعلوماتى هى أن المطبخ الألمانى هو أسوأ مطبخ فى القارة .. فقط الألمان يمزجون العسل بالخردل بالفلفل فى مزيج رهيب .. لكنى أكلت ولم تكن لدى تحفظات سوى ما عرفه (فرانكنشتاين) عن عاداتى الدينية بصدد الدجاج المخنوق ولحم الخنزير والخمور .. لكنى بعد قليل تذكرت مشهد المرطبان المهشم وما يحويه من أشياء بشعة ، هنا كان بوسعى أن أقسم على أن ما آكله له ذات المذاق .. احتشدت العصارة فى أعلى معدتى ، وزهدت الطعام تمامًا ..

حقًا أنا طبيب ولا شىء يقدر على إثارة اشمئزازى حتى العيون المقلوعة ، لكن ليت ما كان بالمرطبان عيونًا مقلوعة ! إذن لأكلت بشهية !

قال (فرانكنشتاين) وهو يلتهم بجنون ما أمامه كأنما هو رهان :

ـ « أراك لا تأكل .. »

ـ « قد أثر السفر على معدتى بعض الشىء .. »

(أجاثا) أيضًا لم تكن مهتمة بالأكل .. كانت قد عقصت شعرها واستندت بذقنها على قبضتها اليمنى ، وراحت بوجه شاحب باهت حزين ـ كأنه وجه مريضة سل فى قصة عاطفية فرنسية ـ ترمقنى ، وفى عينيها ألف سؤال وألف إجابة ..

جاء (أدولف) بالقهوة ، ومع ما تبعثه رائحتها فى النفس من استرخاء وحب ثرثرة ؛ قال (فرانكنشتاين) :

ـ « قد حان الوقت كى نتكلم بالتفصيل عن نوعية التجارب التى أقوم بها يا دكتور (ميخائيل) هاهنا .. »

ـ « الاسم هو (إسماعيل) يا سيدى إن سمحت لى .. »

فى ضيق غمغم وهو يهز يده كأنما ليدعونى للنسيان :

ـ « لا عليك .. لا عليك .. الحقيقة هى أننى يجب أن أرجع إلى الوراء عدة قرون .. ربما إلى القرن الخامس عشر .. أنت تعرف أنه توجد فى ألمانيا قلعة باسم (فرانكنشتاين) ، وهذا هو جدى الأكبر الذى منح الأسطورة اسمه .. ويؤمن عدد لا بأس به من النقاد أنه هو من ألهم (مارى شيللى) باسم الدكتور (فكتور فرانكنشتاين) .. حسن .. هذه نقطة يصعب التأكد منها لأن عددًا مماثلا يؤمن بأن الاسم مشتق من اسم الأمريكى العظيم (فرانكلين) .. إلا أننى أومن بأن كل مولود يحمل جزءًا من حظ اسمه .. وقد حملت أنا ذلك الاسم الذى يرمز للعبقرية المجنونة التى تتجاوز حدودها فى العالم كله .. بل ، إن الخطأ الشائع فى العالم كله هو أن (فرانكنشتاين) هو اسم المسخ .. والحقيقة هى أن (فرانكنشتاين) هو اسم العالم الذى صنع المسخ .. لهذا يبدو اسم كاسمى هذا رهيبًا لا يبعث على الارتياح ، وربما يحمل ذات رنين اسم (دراكيولا) أو (نوسفيراتو) ..

« كل مولود يحمل جزءًا من حظ اسمه .. ترى هل هى صدفة أننى مهتم منذ صباى بآليات الحياة

والطريقة التى تتحرك بها جزيئات من الكربون والهيدروجين لتأكل وتفكر وتحب ؟ »

شعرت بقشعريرة .. إلام تفضى هذه المحادثة بالضبط ؟ أراها تتوغل فى الأراضى الشائكة المعهودة لتقود إلى المستنقع المخيف .. أخذت نفسًا عميقًا ونظرت إلى الليدى (ماكبث) .. معذرة .. أعنى (أجاثا) طبعًا فوجدتها ترمقنى بتلك النظرة الشفافة الخائفة .. النظرة التى التمعت فى عين أكثر من غزال رأى طرف سهم الصياد من بين الأحراش ، ولم يدر قط ما هو ..

نهض (بيتر فرانكنشتاين) حاملا القدح فى يده اليمنى والطبق فى الأخرى ، ومشى إلى الجدار الذى تتوسطه صورة لم أدر كنهها من قبل .. كانت تمثل خنزيرًا بريًا عملاقًا يهاجم فتاة من فتيات القرون الوسطى الصارخات المبتهلات .. وثمة فارس باسل قادم ملوحًا بسيفه وقد انتوى أن يخرب بيت الخنزير .. الصورة ذكرتنى كثيرًا بصورة القديس (مارجرجس) والتنين التى تراها فى بيوت الأخوة المسيحيين فى (مصر) ..

سألت (بيتر فرانكنشتاين) فى حذر :

ـ « هل أنت واثق من أن الفارس ليس من جدودك ؟ »

ـ « لا بالطبع .. »

ـ « ولا الفتاة ؟ »

ـ « ولا الفتاة .. »

ـ « وماذا عن الخنزير ؟ »

قال فى فخر وهو يسكب محتوى القدح على الأرض :

ـ « أما هذا فنعم !! »

ـ « الخنزير البرى جدك ؟ »

ـ « بل من اخترعه ! جدى هو من اخترع هذا الخنزير ـ أو كذا تقول الأسطورة ـ وقد مات هذا الفارس المغوار فى أثناء الصراع الرهيب ، فلم يستطع إنقاذ الفتاة (*) .. »

(*) حقيقة .. أعنى طبعًا أن هناك أسطورة ألمانية حقيقية بهذا المعنى ، وبطلها يدعى (فرانكنشتاين) !

ابتلعت ريقى وتأملت اللوحة .. ما زلت لا أفهم ما يقول ..

قال وهو يسقط القدح أرضًا فيتهشم ، وإن كان لم ير هذا :

ـ « معنى هذا أن جدودى حاولوا .. ربما نجحوا فى الشىء الذى اشتهروا به .. إن (مارى شيلى) لعبت دور المؤرخة أكثر منها أديبة ، وقد اكتفت بأن حكت لنا ما كان .. »

قلت فى حدة وقد بدأت أفهم :

ـ « كف عن هذا الهراء يا دكتور (فرانكنشتاين) .. كلانا رجل علم يعرف أن ما تقوله مستحيل .. »

ـ « الفروض العلمية التى تكون الاستحالة مقدماتها لا تصلح لاستخلاص النتائج .. »

ونظر إلى الوراء حيث كانت أخته تنظر إلى السجادة العتيقة وترتجف من فرط رعب وانفعال ، وقال :

ـ « (أجاثا) يا عزيزتى .. قولى شيئًا لهذا المتعصب .. »

قالت دون أن ترفع عينيها كأنما قارفت إثمًا كبيرًا تخجل منه :

ـ « دعنا نصحبه إلى القبو يا (بيتر) وهناك سيرى .. ولسوف يصدق .. حتمًا سيصدق .. هذا لو كان رجل علم بحق خاليًا من التعصب .. »

* * *

ـ « سيدى .. كل ما تعلمته عبر هذه الأعوام هو : لا توجد قواعد ثابتة .. التجريب هو المقياس الوحيد لى .. قل لى إن (مارثا) تخرج النار من أذنيها فى الليالى القمرية .. لا مشكلة عندى .. فلا توجد لدى قناعات أو تحيزات مسبقة .. دعنا نر ما سيحدث لها فى ليلة قمرية .. دعنا نقسه جيدًا ونسجله ونفتش عن تفسير علمى له .. »

* * *

كانت قاعة طولها ..... ولكن لا .. لست فى الواقع واجدًا جدوى للوصف (البلزاكى) من طراز (غرفة

طولها أربعة أمتار وعرضها ثلاثة أمتار ، بها إفريز مجاور للحائط ارتفاعه ربع بوصة ترتسم عليه زهور الجلاديولس التى لونها الفنان باللونين الأخضر والأرجوانى) .. لا داعى لهذا الإطناب ، فلم يعد أحد يملك مزاجًا رائقًا للتخيل إلى هذا الحد .. لنقل إنها قاعة وكفى .. بها أكثر من مجهر ، وأكثر من جهاز إشعاع غريب المظهر ، وأكثر من طبق (بترى) يبدو أن ما به باكتريا أو فطر ما .. والقاعة كلها محاطة بستائر التى تقود إلى أبواب .. هل قلت كل شىء ؟ لا .. هناك تلك الرائحة العضوية الدالة على تعفن لا بأس به والتى لا أعرف مصدرها .. وهناك الإضاءة الزرقاء العامة المريحة للأعصاب لبضع دقائق ، قبل أن تتبين أنها خانقة كريهة ..

وتحت عدسات المجهر الأول رأيت خلايا حية .. خلايا حيوانية .. ثم رأيتها بعد الموت وقد بدأت علامات التحلل العضوى تظهر عليها ، ثم رأيت الخلايا فى حالة انتعاش .. قلت له وعينى تخفق ألمًا بعد ما أجهدتها نظرًا فى العدسات :

ـ « من جديد يا سيدى لا أرى أن هذا يدل على شىء .. لابد من البدء من الصفر ، وتوثيق النتائج بعناية .. لابد من أن أضع أنا علامة على مزرعة الخلايا لأعرف أنها هى بالذات ما نتكلم عنه .. »

ابتسم وأدركت أنه لم يصغ لى بل كان يفعلها مجاملا ، أما عقله فكان مع مرطبان آخر يحوى عينات عضوية لم أدر كنهها .. رأيته يقرب منها شيئًا يتدلى من السقف بمجموعة معقدة من الروافع والتروس ، كأنه مدفع آلى لكنه مزود بعدسة فى مقدمته ، وبحنكة راح يضبط الزاوية والاتجاه كى يمرّ الضوء الأحمر المنتظم عبر المرطبان ، ثم نظر لأخته شذرًا ومسح أنفه ، وواصل العمل فى تفقد العينات ..

قلت :

ـ « تعرضون هذه العينات لليزر ؟ »

قال وهو يزيح بعض الستائر الكثيفة :

ـ « هذا جزء بسيط لا أهمية له فى تجاربى ، لكنه مهم لإخراس المعارضين .. سأشرح هذا وأكثر فيما بعد ، أما الآن فيا حبذا لو جئت معى إلى صومعتى السرية حيث لم يدخل بشر قبلك ! »

* * *

٦- الشيء تحت الملاءة ..

كانت هذه الغرفة الصغيرة الضيقة هي مصدر الرائحة .. عرفت هذا .. شممته .. البرد في كل مكان .. برد يجمد الدم في عروقك ، ويزحف فوق فقرات ظهرك كما يحدث في أفلام الرسوم المتحركة .. برد لم يأت من عالمنا ولم نر له مثيلا من قبل ، ولكن من عالم جليدي ما .. من كوكب جليدي ما .. ربما (بلوتو) أو (نبتون) ، حيث الصقيع هو الأقوى ، والظلام هو الأطغى ، والبرودة هي اسم اللعبة ..

لقد أزاح (فرانكنشتاين) الستائر السميكة لأرى في السقف ثلاثة مصابيح تتدلى من نظام توجيه ميكانيكي معقد ، يسمح بتغيير الزوايا بدقة متناهية من مفاتيح على الجدار .. وأدركت أن ضوء المصابيح الثلاثة يتقاطع عند هدف واحد ..

هدف في مركز الغرفة ....

هدف يرقد على سرير فحص هناك ..

هدف تحت ملاءة بيضاء متسخة ملأتها البقع ..

هدف له طول الجسد البشري وارتفاعه ومعالمه الخارجية ..

* * *

كنت أرتجف ذهولا وهلعا ، ونظرت إلى الوراء حيث كانت الأخت (أجاثا) تنظر لنا في توجس ، ثم اتجهت نحو أحد المحولات العديدة المثبتة إلى الجدار ، وبيد بلورية شفافة راحت تعيد ضبط بعض الأرقام ، ثم همست بذلك الصوت الأفعواني (بلا داع طبعًا لأن المكان منعزل) :

ـ « الجرعة عالية بحق .. أرى أن ننسحب أو ترتديا المناظير الواقية .. »

قال (فرانكنشتاين) وهو يناولني ما يشبه المنظار الواقي للحام :

ـ « لا داعي .. سنضع المناظير يا ملاكي .. إن الدكتور (رفعت) لابد أن يرى هذا .. »



وارتدى مثلى ، وفعلت هي الشيء ذاته ، حتى شعرت كأننا لصوص منهمكون في السطو على خزينة مصرف .. كان الحجاب كثيفًا ولم أر شيئًا في البداية ثم تزايد النور ببطء ، وبدأ يخترق الغمامة السوداء على العوينات .. الإشعاع يتزايد أكثر فأكثر وشممت رائحة شيء عضوى يحترق (أشعر رأسه أم جلد صنعتى؟) ..

أخيرًا أرى حدود الجسد المسجى تحت الملاءة .. يد (فرانكنشتاين) تزيح الملاءة في شيء من قسوة ..

وتصلب شعر رأسى على الجانبين ، على حين زحف الثلج على ظهرى ..

كان إنسانًا .. ميتًا .. أو هذا ما بدا لى .. لم يثر هذا رعبى ، فأنا رأيت كل أنواع الجثث والمومياوات حتى ما يخص (دراكيولا) منها ..

المشكلة هنا هي أن الجسد كان مليئًا بالخياطات التى توحى بعرورة بعدد من الجراحات البدائية ، من وقت ليس بالبعيد .. البطن يتوسطها جرح طولى هائل .. توجد خياطة عند اتصال كل طرف بالجذع ، وعند

اتصال العنق بالجذع .. الرأس نفسه ـ وهو عار من الشعر ـ تمت خياطة أعلاه إلى باقى الوجه كأنما هى ثمرة مانجو تم انتزاع ربعها العلوى ليسهل التهامها ..

وتسلقت عيناى الوجه ...

كان وسيمًا دقيق الملامح فى غيبوبته النهائية .. وأدركت أن عمره لم يتجاوز العشرين حين مات .. أما عن الرائحة فكان هو مصدرها بوضوح تام ، لكنى أدركت أن جو الغرفة شديد البرودة قد صمم خصيصًا لمنعه من مزيد من التحلل ، وهو ما ذكرنى بقصة قديمة لسيد الكوابيس (لافكرافت) حين كان الرجل غريب الأطوار لا يلقى صاحبه إلا فى جو شديد البرودة .. وفى ذات يوم فسد جهاز التبريد فماذا حدث ؟ وماذا اكتشف الصديق المذهول ؟!!

ولم يكن البرد هو الاحتياط الأوحد .. كانت هناك تقنية معينة لحفظ الأنسجة عبارة عن خراطيم تدخل وتخرج إلى عروق الميت ، ويبدو أنها تمر بدورة ما يؤمنها محرك صغير يتصل بزجاجتين .. إلى حد ما يذكرك المشهد بجهاز الغسيل الكلوى المنزلى المعروف الآن ..

وبصوت مبحوح سألت (فرانكنشتاين) :

ـ « إذن .. أنت .. أنت تقوم بما أظن أنك تفعله ؟ »

قال وهو يبعد أحد الخراطيم عن موطئ قدمى :

ـ « بالتأكيد .. أنت ذكى بما يكفى لتفهم .. »

ـ « وتعتقد أنك ستنجح ؟ »

ـ « لن أنجح لأننى نجحت بالفعل ! هذا هو نموذجى الثالث !! »

ـ « أيها النصاب ! »

* * *

قالت (أجاثا) بصوتها الواهن المتداعى الذى جاء من برد هذه الغرفة ذاته :

ـ « الأمر قد يبدو عسير التصديق يا د. (رفعت) .. لكنه حقيقى .. حقيقى كهذه الغرفة وبردها وضوئها .. لقد تمنيت كثيرًا أن نفشل .. تمنيت أن نبوء بالخيبة ، لكن التجربة نجحت .. أقولها ذاهلة .. أقولها ملتاعة ..»

وتهانفت فأخرجت منديلا دفنت فيه أنفها ..

فى غيظ صحت :

ـ « يا سلام ! وأين ذهبت نتائج التجارب الأخرى؟ » .

تبادل (فرانكنشتاين) النظر مع أخته .. نظرة من وراء زجاج المنظار الأسود لم أرها لكنى شعرت بها ، ثم قال :

ـ « دمرتها يا دكتور (رفعت) .. دمرتها لأننى فنان .. والفنان لا يرضى عن عمله أبدًا .. لكنى استوثقت على الأقل من أن المبدأ قائم ، وإننى لأعتمد بشدة على هذا النموذج باعتباره الأنجح !! » .

كان شريانى الصدغى يخفق كالمجنون يضخ الدماء فى رأسى ، وأدركت أن انفجار المخ قادم بعد ثوان ما لم أهدأ قليلاً ..

وهكذا طلبت الخروج من هنا ..

وفى قاعة المعيشة وضعت قرص النتروجلسرين ـ صديق عمرى المخلص ـ تحت لسانى ، وانتظرت بعض الوقت ثم أخذت قرصًا مهدئًا ..

فى سخرية قال (فرانكنشتاين) وهو يهرش ما تحت إبطه بلا وقار :

ـ « قد أثار كل هذا رعبك !! » .

ـ « بل أثار غيظى .. أنا أمقت من يكذب وأنا أعرف أنه يعرف أننى أعرف أنه يكذب !! هذا شخص جدير بحطب جهنم .. » .

قالت الفتاة وهى تجلس فى رفق كالأشباح :

ـ « اهدأ يا دكتور (رفعت) ودعنى أحك القصة من بدايتها .. » .

* * *

قالت (أجاثا فرانكنشتاين) :

« لكى أبدأ من البداية يا د. (رفعت) يجب أن أحكى لك نبذة عن الليزر .. لقد كان هذا العلم الوليد يحمل لنا من الوعود ما حملته الكهرباء للناس قديمًا ..

« الليزر هو الحروف الأولى من عبارة (تكبير الضوء بانبثاق الإشعاع المحفّز) .. وهى وسيلة لبعث

حزم ضوئية متلاصقة تتراوح معا تحت الحمراء إلى ما فوق البنفسجية .. إن هذا يجعل الضوء قويًا سهل التوجيه ونقيًا جدًا في تردده ..

« إن الليزر ـ يا دكتور (رفعت) ـ هو الثورة الحقيقية التي ستهز عرش العلم هزًا(*) .. وهو بالمناسبة ليس اختراعًا جديدًا إلى هذا الحد ؛ فالفكرة مطروحة من عام ١٩١٧ .. لكن ربما ينسب الفضل في اختراعه إلى الأمريكيين (شولو) و(تشارلز تاونس) عام ١٩٥٨ .. وربما (جوردون جولد) .. والعالم الإيراني الأمريكي (علي خافان) ..

« إن المبدأ في كل أنواع الليزر واحد .. تكسب الإلكترونات طاقة عالية ثم تحفز بفوتون خارجي ؛ لتخرج فوتونات أخرى بدورها وهو ما يسمى بـ (الانبعاث المحفز) .. ويمر الضوء بعدد من خطوات التكبير بين سطحي مرآة حتى يطلق سراحه

(*) لا تنس أننا نتكلم في عام ١٩٧٢ وهو زمن مبكر جدًا ..

في النهاية عبر سطح نصف مفضض .. ويكون الوسط الذي يولد فيه الليزر صلبًا أو غازًا أو شبه موصل وسائلًا ..

« منذ عشرة أعوام كاملة وأنا منبهرة بالليزر .. درسته وكرست حياتي في الجامعة بـ (برلين) من أجله ، بينما كرس أخي (فرانكنشتاين) حياته لغرض واحد هو فهم طبيعة الحياة .. كلانا كان ينجح ويفشل .. لكننا في النهاية قررنا أن نوحد جهدينا من أجل هذا المشروع العملاق ..

« لم نستطع استكمال أبحاثنا في (برلين) من ثم عبرنا الستار الحديدي وأقمنا في (سويسرا) .. تلك كانت معجزة حقيقية لكنها حدثت ، ومن هنا بدأت نواة هذا المعمل الصغير .. قمت بتركيب وتصميم عدد من أجهزة الليزر ، أما أخي فراح يواصل تجاربه على الخلايا .. مراحل موت الخلية .. محاولة عكس هذا التأثير باستخدام الليزر ..

« أنت كنت موجوداً فى المؤتمر الصحفى ، وسمعت جانباً من المناقشات .. حسن .. الحقيقة أن هذه الأبحاث تمت منذ خمس سنوات ، لكننا كنا بحاجة إلى تقديم جرعات متزايدة متدرجة من الصدمة الكبرى للعالم .. كمن يخبر صاحبه بوفاة أمه على مراحل ، فيبدأ بالقول إن السيدة العجوز مريضة نوعاً .. ثم إن السيدة العجوز فى المستشفى .. وهكذا ...

« أنت كنت موجوداً فى المؤتمر الصحفى ، وسمعت الغضبة الكبرى التى صاحبت تصريح أخى .. برغم أنه لم يخرج عن الجزء الأول من الخبر (السيدة العجوز مريضة نوعاً) .. ترى ماذا سيحل بنا لو أعلنا باقى الخبر ؟ إننى أرتجف لهول الفكرة ..

« والآن نتكلم عن الأبحاث التى تمت هنا .. والتى بدأت منذ ثلاث سنوات .. »

* * *

٧ - بروميثيوس ..

قالت (أجاثا) :

- فى البداية قام أخى بالحصول على أجزاء آدمية من المقابر المجاورة بالاستعانة ببعض اللصوص .. وهذا بالضبط ما قام به (فكتور فرانكنشتاين) فى قصة (مارى شيللى) ، ثم قام بتوصيل الأجزاء لتكوين هيكل آدمى ..

- بعد هذا كانت العملية المعقدة التى ابتكرتها أنا شخصياً .. كنا نحقن الأنسجة بمادة معينة ، ونقوم بتعريض الجسد إلى الليزر لفترات طويلة .. هناك أجزاء كان تعريضها يتم وهى خارج الجسد مثل العينة التى رأيتها فى المرطبان ، وهى غدة درقية بالمناسبة .. وفى النهاية استطاع الكائن الأول أن يفتح عينيه وينهض .. كان مثيراً للشفقة والرعب ، وكان مشوهاً أكثر من كل شىء تتخيله أو تخيلته السينما ، لكنه كان يتحرك ، وكان له قلب ينبض ، وإرادة خاصة به ..

« بعد أيام قام أخى بتدمير هذا الكائن ، وتذويبه فى الحمض لأنه كان مسخاً وأخى لا يرغب فى صنع المسوخ .. إنه يصبو إلى الكمال ..

« الكائن التالى كان أفضل نوعاً لكنه كان مصاباً بنوع من العته ، وكان لا يكف عن الصراخ حتى أحال حياتنا جحيماً وأوشك على أن يفضح سرنا ، لهذا تخلص أخى منه ، وبدأ فى الكائن الثالث ، ولا يخفى عن ذكائك أننا سميناه (بروميثيوس ـ ٣) .. »

قلت دون أن أنظر إليها :

ـ « (بروميثيوس) هو الإنسان الأول فى الميثولوجيا الإغريقية .. اسم مناسب جداً »

قالت الفتاة وقد ازداد سواد الهالات المحيطة بعينيها كأنما عينيها فى بئر عميقة :

ـ « .. وسارق النار ومن علمها للبشر .. هذا ما أثار سخط سادة الأوليمب عليه .. أنت تفهم الآن ما أرمى إليه .. »

قلت فى غل وأنا أتمنى لو هشمت عنقها النحيل ، ثم استخدم رأسها كمطرقة أهشم بها رأس أخيها :

ـ « حسن .. أنت تعرفين أننى لا أصدق حرفاً من هذا كله .. المنطق نفسه غير متوازن .. لماذا يسرق أخوك الجثث ما دام عبقرياً إلى هذا الحد ؟ لماذا لا يصنعها ؟ »

قال (فرانكنشتاين) فى ضيق ، وقد أفاق من غيبوبته لسبب ما :

ـ « لا تكن طفلاً .. لا أحد يستطيع صنع كائن حىّ ! »

ـ « معذرة على شدة غبائى .. لكنى حسبت أنك تتكلم عن شىء كهذا .. ولماذا لم تسرق جثة كاملة وينتهى الأمر ؟ »

ـ « أنا أختار أجمل جزء من كل إنسان .. الوجه وجه ممثل سينما والذراع ذراع مصارع ، والقدم قدم عداء ، والمخ مخ مفكر .. »

ـ « يا سلام ! واللسان لسان شاعر ، والمعدة معدة دباغ والرئة رئة سباح .. هل تعرف لماذا لم

أتركك وأرحل يا (فرانكنشتاين) ؟ لأن لدينا فى مصر مثلاً شعبيًا يقول : (خليك مع الكداب لحد باب الدار ..) أترك الكاذب يأخذ راحته إلى أقصى حد حتى تموت قصته تلقائيًا .. أم أنك تعيد الحياة للقصص الميتة ؟ » .

قالت الفتاة وهى تترنح وإن كنت لا أفهم السبب :

- « لا تسخر يا دكتور (رفعت) .. فها نحن أولاء نطالبك بأن تحضر معنا هذه التجربة مع (بروميثيوس - ٣) » .

ثم ارتجفت مرتين وسقطت على الأرض ككومة الثياب ..

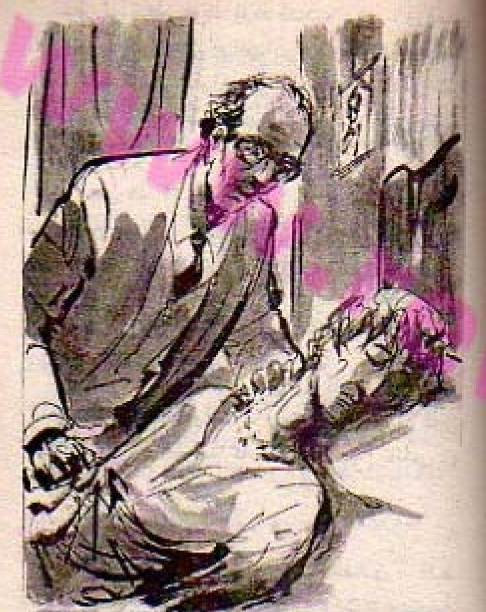
لكنى - بصراحة - لم أجد لدى ميلاً لمعاونتها .. تركتها وتشاغلت بفحص أظفارى ، وكذا بدا أن (فرانكنشتاين) فى إحدى نوبات الخبال الذهولى التى يعانى منها كثيرًا ، فراح يدون شيئًا على أوراق أمامه ..

بعد دقيقة شعرت بخجل من موقفى ، فناديت الخادم ، وطلبت منه أن يساعد الفتاة ويقدم لها بعض دوائها الذى لا أعرف اسمه ..

وحملناها معًا إلى غرفة نوم صغيرة فى الطابق الثانى .. كانت الفتاة ثقيلة جدًا بالنسبة لإمكانياتى الجسدية .. لابد أن وزنها لا يقل عن أربعين كيلوجرامًا .. وهكذا جلست جوار الفراش أسعل وألهث ، وتناولت قرصًا من النيتروجلسرين .. وطلبت من الخادم كوب ماء ..

لكن الخادم لم يأت بكوب ماء فقط ، بل جاء بحقيبة طبية كاملة وضعها بجوارى ، وقال فى كياسة همسًا ، وبلهجة إنجليزية فظيعة :

- « معذرة يا سيدى .. أنا أعرف أنك طبيب ، وهذه النوبات قد صارت تباغتها ثلاث مرات يوميًا وهى تأبى استشارة طبيب .. إن أخاها ذاهل تمامًا ولا يوليها اهتمامًا .. أحيانًا يبدو مذعورًا وأحيانًا لا يلاحظ ما يحدث أصلاً .. إنها الآن لا تستطيع الاعتراض ، ولا أرى ما يشين أو يضر بالأمانة لو طلبت منك أن تفحصها سريعًا .. لو كان هذا فقر دم فأنت خبير بأمراض الدم .. ولو كان ورمًا فى المخ كما أتوقع فلعلك تخمن هذا .. »



هنا لاحظت حول عنقها ندبة دائرية غريبة .. ندبة كأنها كانت ترتدى تلك الحلية التى يسمونها (كوليه) حول العنق ..

تأثرت باهتمامه الذى لم يظهره الأخ ، وسألته بإنجليزية رديئة لابد أن يفهمها :

- « هل أنت مع الأخوين منذ زمن أيها الرجل الأمين ؟ »

- « ثلاثة أشهر لا أكثر .. لكنى أحب هذه الفتاة ، وأشعر بأنها لا تستحق المعاملة الكريهة المخبولة التى يعاملها أخوها بها .. هذا البيت يشبه بيوت الرعب فى السينما ، وأنا لم أبق به إلا لأننى لا أجد مكانا آخر .. إن الاختيارات تقل فى سنى .. »

شكرته على اهتمامه ، وطلبت منه أن يوارب الباب ، ثم قمت بقياس ضغط دم الفتاة .. حقا كان منخفضا كالأشباح لو أن الأشباح لها ضغط دم .. كانت أنسجة شفتيها شاحبة تماما ، فلم يعد فقر الدم شيئا يحتاج إلى تحليل ..

هنا لاحظت حول عنقها ندبة دائرية غريبة .. ندبة كأنها كانت ترتدى تلك الحلية التى يسمونها (كوليه) حول العنق .. غريب هذا .. أو كأنها - ويا لها من فكرة - شنقت ثم أنزلوها من على الحبل ..

خطر لى خاطر غريب نوعا فمددت يدى ، ورفعت كم الثوب إلى أعلى ذراعها ، فوجدت الندبة ذاتها هناك عند اتصال الذراع بالجذع .. دققت النظر أكثر فوجدت ما يشبه آثار الخيط الجراحى حين يلتئم الجرح فينتزع ..

ما معنى هذا ؟؟

هذه الفتاة مرت بجراحة غير مفهومة .. جراحة تمت حيث يتصل الذراعان والعنق بالجذع .. فما هى هذه الجراحة ؟؟

* * *

كان هناك موقف مماثل مع (براكسا) حسناء المقبرة .. كانت نائمة وكنت أنا أرمق الجرح المريع الذى مزق عنقها ، وبرغم هذا كانت حية .. حية تتنفس .. وفتحت عينيها لترمقنى ....!

* * *

كان قلب (أجاثا) ينبض بمعدله العادى .. فقط كان أكثر سرعة بسبب فقر الدم .. وكانت استجابة عينيها للضوء طبيعية .. إنها الآن نائمة لا أكثر ..

نهضت فى تؤدة ، ورحت أذرع الغرفة جيئة وذهابًا ..

لم يكن لدى سوى تفسير واحد لكنى لن أقوله .. التفسير السهل مستحيل أن أتلفظ به ، والتفسير الصعب هو ـ ببساطة ـ صعب ..

مشيت فى الغرفة جيئة وذهابًا .. كانت هناك بعض صور معلقة على الحائط .. بعضها يظهر صورًا لا بد أنها التقطت فى (برلين) .. هذا الطابع لا تخطئه العين لأوربا الشرقية .. كانت الصور تظهر (فرانكنشتاين) الأخ والأخت يجلسان فى ميدان عام على حاجز نافورة ماء .. ثم صورة أخرى جعلتنى أرجف خيفة .. كانت صورة للفتاة ولكن مع شريط حداد أسود على الركن العلوى للإطار !

هذه مزحة بالتأكيد أو أم الفتاة كانت تشبهها أكثر من اللازم ..

سمعتها تئن ، وراح رأسها يهتز على عنقها محاولا التماسك ، فقلت لها فى سرى (كما يقول الإنجليز) : استيقظى واشرقى !

هنا دخل الخادم الغرفة ، ونظر لى رافعاً حاجبيه نظرة من نوع (هل ـ توصلت ـ لشىء ـ ما ؟) .. فنظرت له نظرة من طراز (فلنتكلم ـ عن ـ هذا ـ فيما ـ بعد) .. ودنوت من الفتاة ..

هنا أعترف بشىء .. لقد كنت واثقاً تماماً من أنها ليست كما تزعم .. لكن الرعب غير المنطق تسلل إلى روحى .. الرعب الذى يجعلك تخشى لمس جلد مصاب بالإكزيما برغم أن الإكزيما مرض غير معد ، وتخشى لمس أفعى تعرف جيداً أنها غير سامة .. هذا الرعب جعلنى بحق أهابها وأحاول ألا ألمسها قدر الإمكان.. كأن جلدها الشاحب البارد هو الموت ذاته ..

وبعد برهة عدنا إلى القاعة فلم نجد (فرانكنشتاين) ..

قال الخادم وهو يرفع الأقداح الموضوعة على المنضدة :

ـ « قد غادر الدار دون كلمة أخرى يا سيدى .. »

ـ « فكرة أخرى عجيبة زارته على حين غرة .. »

وجلست على الأريكة أتفحص صفحات مجلة ما ..

كان الليل قد أوغل ، وشعرت بحق بأننى بحاجة إلى النوم لأرتاح من عناء التفكير بضع ساعات ..

إن (فرانكنشتاين) وتجاربه لقادران على الانتظار ..

* * *

٨ ـ لا تحاول يا دكتور !

كنت أعرف أن الكوابيس ستزورنى ..

هذه من الليالى النادرة التى يحدث فيها شىء كهذا .. أن تنتظر الكابوس ولا تندهش لقدومه ..

* * *

وكعادة أضغاث الأحلام كان هناك ذلك الاجتماع الصاخب بين (مارى شيللى) و (جيفارا) الثائر الأرجنتينى العظيم و (عزت) جارى ، وكان الحديث كله عن سبب ابتلاع أسماك القرش لساقى اليسرى .. كان (عزت) مصراً على أن ساقى سليمة بينما أصر (جونسون) الرئيس الأمريكى على أن (كنيدى) لم يمت .. كانت خالتى فى الشرفة تنشر الغسيل وفجأة نهض المسخ الذى صنعه (فرانكنشتاين) فأطلقت صرخة عاتية ، وسقطت من الطابق الأول (لأن منزلها كان من طابق واحد فى الزقازيق) فتكسرت أسنانها ..

الآن يقف (بيتر فرانكنشتاين) ليقول فى حزم إننى .. إننى ماذا ؟ لقد نسيت ....

لكن (لوسيفر) لم ينس .. لقد وعد باللقاء ..

* * *

كنت نائماً فى الغرفة المظلمة .. وحدى ...

كنت أتكلم وأصيح وآتى بحركات عصبية ..

كنت جاهلاً بالخطر لو كان هناك خطر ..

كنت عاجزاً عن رؤية من بالغرفة معى لو كان هناك أحد ..

كنت ضعيفاً واهناً .. إنها ساعة الذئب التى يغدو فيها المرء كرضيع معدوم الحيلة ..

* * *

وصحوت من النوم مهشم الأوصال كتمثال ضبط متلبساً فى مولد ، أو حمار جرّ يحركه صبى معتوه سادى النزعات ..

كان قرارى الأول هو أن نهضت وفتحت حقائبى ، وبدأت أضع حاجياتى بها .. كنت دائمًا أسوأ من يستطيع تنسيق الأشياء فى حقائبه .. أما الآن فكان الوضع أسوأ بعدما أفرغت الحقائب أمس .. تذكرت على الفور التعبير - أو لعله المثل - الروسى الذى يقول : لا سبيل لإعادة معجون الأسنان إلى الأنبوب بعد خروجه منها ..

سمعت طرقات على الباب ، ودخلت الليدى (ماكب... أجاثا) ، وقد ازداد اصفرار شفتيها والسواد تحت عينيها مما أكد لى أنها على ما يرام .. وكانت تبتسم بعذوبة وقد جاءت لتشكرنى على (سهرى بجوارها فى أثناء اعتلالها أمس) ، ثم فوجئت بالمنظر العجيب فى غرفتى ..

سألتنى فى دهشة :

- « ماذا حدث ؟ هل تسلل دب قطبى إلى الغرفة أمس ؟ »

- « بل أنا أحاول حزم حقائبى ، ولم أكن قط بارعًا فى هذا الفن .. »

- « أنت تعرف أننى أرحب بهذا ولكن لماذا ؟ هل ضايقك شىء ؟ »

بتهذيبى المعتاد ثم أصارحها بأن كل شىء هنا غريب ومرجف ومثير للاشمئزاز .. هى نفسها لا تريحنى كثيرًا خاصة بعد ما رأيته أمس ولم أجد له تفسيرًا .. أشعر فى وجودها بنفس ما كنت أشعر به فى بيتى بالقاهرة ، حين يتسلل البرص الشاحب إياه إلى غرفة نومى فى ليالى الصيف ..

قلت لها وأنا مستمر :

- « التجربة التى تدور هنا لا تناسبنى عقائديًا ، وأرى فيها قدرًا لا بأس به من التجديف والعبث .. الأمر كله مقزز ولا يريحنى ، ثم إننى أعرف من اللحظة الأولى أن هذه تجربة فاشلة ، لأن الموتى لا ينهضون إلا لحظة الحساب ، وبأمر خالقهم لا بأمر طبيب فارّ من الستار الحديدى ، حتى لو كان يحمل اسم (فرانكنشتاين) .. »

- « إن منطقك العلمى مفكك .. كيف تصدق ما لم تر ؟ »

* * *

وهنا استعدت كلماتى مع (شوندر) حين جلسنا نتناول العشاء :

ـ « سيدى .. كل ما تعلمته عبر هذه الأعوام هو : لا توجد قواعد ثابتة .. التجريب هو المقياس الوحيد لى .. قل لى إن (مارثا) تخرج النار من أذنيها فى الليالى القمرية .. لا مشكلة عندى .. فلا توجد لدى قناعات أو تحيزات مسبقة .. دعنا نر ما سيحدث لها فى ليلة قمرية .. دعنا نقسه جيدًا ونسجله ونفتش عن تفسير علمى له .. »

* * *

ابتلعت ريقى .. لم لا أرى ؟ إننى سأفهم الطريقة التى ينويان بها خداعى .. هذا مضمون على الأقل .. لم لا أجرب ؟ عندها سأعود محملا بالأدلة إلى وطنى .. وسأحكى عن الهراء .. الهراء الذى رأيته ..

قلت لها وأنا أسترخى قليلا :

ـ « ليكن .. متى تتوقعين أن تتم التجربة ؟ »

ـ « خلال ثلاثة أيام .. »

ـ « وهل يسمح لى بأن أتخذ كل ضمان ممكن ؟ »

ـ « بالتأكيد .. لكنى أنصحك بالرحيل قبل هذا .. لا تعد هنا أبدًا .. أما إن بقيت فتذكر أن أخى سيطلب منك تقريرًا موقعًا منك ليضعه فى وجه من يعترض !! »

هنا تحشرج صوتى .. أنا أكتب هذا الكلام الذى هو ـ إن لم نعتبره تجديفًا ـ هراء علمى صريح ؟! هذه القضية نموذج ممتاز للأساطير التى تتعارض مع الدين والعلم معًا .. وتكون هذه بالذات هى الأسطورة التى أوقع باسمى عليها !!

كأنما سمعت أفكارى ؛ قالت :

ـ « دعك من التعصب بلا طائل .. لو تأكدت من التجربة بما لا يقبل مجالا للشك ، فمن الكبرياء السخيفة أن تستمر على نكرانك .. »

ثم أدارت ظهرها وقالت وهى تنصرف :

ـ « القرار قرارك يا د. (رفعت) .. لكنى ما زلت أحبذ أن ترحل .. إن هذا المكان خطر ويزداد خطرًا كل يوم .. »

* * *

وهكذا قررت أن أبقى .. لماذا قررت أن أبقى ؟ سؤال غريب حتمًا .. قررت أن أبقى لأضيف خبرة جديدة إلى خبراتي .. قررت أن أبقى لأنني كنت واثقًا من أن شيئًا لن يحدث .. قررت أن أبقى لأنني أنا !

وفي المساء قمت باحتياطات غريبة بعض الشيء ..

أولا : وأمام عيني (فرانكنشتاين) الغاضبتين ؛ انتزعت قطعًا صغيرة جدًا من أنسجة ذلك الكائن الذي يرقد في معمله ، واستعملت محقنًا لأسحب بعض الدم المتخثر من عروقه ، وقمت بوضع هذه الأشياء في محلول من (الفورمالدهايد) ورقمت أنابيب الاختبار ، ثم ألصقت عليها ورقة تحمل توقيعي .. أنا قادم من مصر بلد الكاتب الجالس القرفصاء ، وبلد الأحراز والشمع الأحمر والتوقيعات و(السركي) .. لن يستطيع أحد أن يتفوق علي في هذا ..

ثانيًا : قمت بإحداث جرح معين في ساق الكائن .. والتقطت له صورة بالكاميرا الخاصة بي .. قصدت من هذا أن يكون علامة تجعلني أتعرف الكائن في كل مكان ..

ثالثًا : وهذا مهم .. قمت بتصوير وتوصيف كل جهاز في المكان ، وهكذا صار كل شيء معدًا للبدء ، وتم إعطاء الخادم العجوز إجازة في تلك الأمسية المختارة ..

لكننا لن نرى شيئًا .....

ـ « آه ! إنه التراجع بهذه السرعة والسهولة إذن !! »

ـ « بل هذه قوانين التجربة .. جريمة الليزر ستكون عالية جدًا عند الذروة ، ولن تسمح لنا بالبقاء أحياء على الإطلاق .. سنتوارى مبتعدين في أثناء العملية ، ولن ندخل إلا حين تسمح لنا (أجاثا) بالدخول ؛ لكنك تملك فرصة الدراسة (قبل ـ بعد) .. »

ـ « كنت راغبًا في الدراسة (أثناء) .. »

ـ « هذا ليس متاحًا .. لكنك حرٌ ولا إكراه هنالك .. وعلى كل حال هناك كاميرا تصوير سينمائي ستسجل ما يدور بالغرفة .. يمكنك دراسة الفيلم فيما بعد .. »

كدت أتساءل عن نوعية الفيلم الذى لا يتأثر بالليزر ثم أحجمت .. إن معلوماتى عن الليزر محدودة جداً على كل حال ، وبدا لى الحلّ عادلاً ..

* * *

وهكذا دخلنا إلى الغرفة الرهيبة .. الكائن نائم بلا رجعة على المنضدة .. وقد انكشف جسده العضلى فوق الخصر ، فبدا قوياً كما يرسمون أبطال الإغريق على جدرانهم .. طلبت من (أجاثا) أن تبدأ تشغيل الكاميرا الخاصة بها ، فراح المحرك يهدر مسجلاً كل شىء على فيلم الثمانية ملليمترات ..

ضغطت بضعة أزرار فتصاعدت رائحة الكهرباء الاستاتيكية ، ورائحة الشعر المحترق إياها .. شعرت بالغثيان فتراجعت للوراء ..

قالت (أجاثا) وعيناها تتسعان رعباً كعادتها :

- « أرى أن الوقت قد حان لننصرف تاركين التجربة تدور .. »

وغادرنا الغرفة لتتوارى وراء ستار سميك . وكان (فرانكنشتاين) قد تحول إلى ذئب مسعور لا يكف عن اللهاث والخوار والشهيق .. فمه مفتوح ويداه ترتعشان ، واللعاب يتدلى من فمه ، وهو لا يكف عن ترديد عبارات لا أفهمها بصوت غير مسموع .. تلاقت عينانا للحظة فأدركت أنه لا يرانى على الإطلاق ..

أثار هذا فزعى أكثر من التجربة ذاتها ..

ورأيت (أجاثا) تمد يدها المعروقة البلورية إلى مجموعة من الأزرار ، فتعالجها ببراعة غير معقولة .. تدير قرصاً يبدو أنه يتحكم فى كم الإشعاع .. تغلق رافعة ما .. وجهها صارم يعكس ألف هول وهول ...

أهذا صوت أنين ما أسمع من الغرفة ؟

* * *

٩ ـ إنه حيّ!

في الغرفة الخالية يرقد الكائن الغريب يتلقى جرعات غير معقولة من الإشعاع .. التألق يتزايد ..

لكن لا صواعق .. لا صرخات كما نرى في السينما .. لا مساعد أحدب غريب الأطوار ولا ثورة غاضبة في القرية .. لا مؤثرات خاصة لـ (ستريكفادين) ..

إن خبرتي الخاصة عن تجربة (فرانكنشتاين) هي الهدوء التام المتوتر .. ولا شيء سواه ...

* * *

صوت اللهاث .. صوت الأنفاس الثقيلة (هففف هففف) من منخر (فرانكنشتاين) وأنا أمقت ثقيلي الأنفاس .. هذا يعطي طابعاً حيوانياً منفراً ..

لابد أن عشر دقائق مرت علينا ، حين استرخى جسد الفتاة وسال العرق غزيراً على جبينها والتصق بخصلات شعرها ، وهمست :

ـ « لابد أن هذا كاف .. لن تزيد الجرعة لنتحاشى الاحتراق كما في المرة السابقة .. »

ثم نظرت لي .. وارتجفت ونهضت .. وخلفها ركض (بيتر فرانكنشتاين) كالقرد ليزيح الستار قبلها .. وتبعتهما بساقين من المكرونة المسلوقة ..

* * *

الدخان في كل صوب ، ورائحة الشياط مع اللحم المحترق ، ثم يتلاشى الدخان مع السعال رويداً ، وأستطيع أن أرى بوضوح تام .. أرى الفراش وأرى حدود الكائن النائم ..

يركض (فرانكنشتاين) في جنون .. يتعثر .. ينهض .. يهرع إلى مكان الكائن ويتفحصه وهو لا يكف عن السعال ..

لقد فشلت التجربة ..

فشلت ....

عرفت هذا جيداً ..

راهنت عليه ..

ثم سمعت الأنين من الفراش ..

وأمام عينيّ المذهولتين أرى الكائن ينهض مترنحًا .. يتوكأ على كتف الطبيب المجنون .. يسعل بدوره .. الدخان يتزايد من جديد ...

كالمجنون أسمع (أجاثا) تهتف :

ـ « لا بأس .. قلت لك إنه من الحكمة أن نقلل الفترة نوعًا وكنت محقة !! »

عم تتكلمان أيها المخبولان ؟ عم تتكلمان ؟ ليست هذه دجاجة مشوية احترقت في المرات السابقة لأنكما نسيـ .... هيهاه ! هاهاهاهاهاهاهاهاها ! إنه هو بالفعل ! الملامح هي الملامح ذاتها ، والندوب هي الندوب ذاتها .. حتى الـ ... هاهاهاها ! حتى العلامات التي وضعتها أنا على ساقه هي هي .. الفارق الوحيد هو أن هذا حي .. هاهاهاها !

بينما كان (فرانكنشتاين) في حالة أسوأ من حالتي بحق ، وقد راح يردد في جنون :

ـ « إنه جميل .. أنت جميل أيها الرجل الصغير .. وملكي ! (برومثيووس) !!

ثم جذب الكائن إلى خارج الغرفة بعيدًا عن الإشعاع ، ووقفت أرمقه في ذهول .. مستحيل .. هناك خدعة هنا لكن ما هي ؟ كيف ؟

ومن الغرفة جاءتني (أجاثا) بالكاميرا ، وقالت :

ـ « هذا هو الفيلم ، وكما ترى لم يعبث به أحد .. يمكنك أن تراه بعد تحميضه في (لوسيرن) ، والآن ماذا ينقصنا ؟ »

أحضرت المبضع والمحقن ، وأنابيب الاختبار ، ودنوت من الكائن .. كان مذهولاً حائرًا يرمق العالم بعينين خاويتين تمامًا ، وكان فمه مفتوحًا يسيل منه اللعاب ، وكل أطرافه متراخية ، بينما رائحة الشياط تتصاعد منه فتخنق أنفاسي ..

سألت (فرانكنشتاين) وأنا أدنو بحذر :

ـ « هل من المأمون الدنو منه ؟ ربما كان كوحوش الأفلام إياها ! »

- « لا أظن .. إنه أقرب إلى طفل وليد لم يتعلم الإيذاء بعد .. سيصرخ ويعول لكنه لن يمسك بسوء .. »

وفى رفق جلس عند ساقى الكائن ، وتشبث بذراعيه ثم أشار لى بما معناه أن أبدأ ...

وعلى الفور أخذت عينة بسيطة جداً بطرف المبضع من جلد الكائن .. جلده الأبيض المقزز كجلد بطن الضفدع .. كان هذا عملاً أحمق لأن ....

ووووووووووووووووووووووووووووووووووووووه !!

دوت صرخة الكائن المريعة العاتية ، وطار ذراعه فى الهواء ليطيرنى بدورى متراً فى الهواء ، ثم يركل (فرانكنشتاين) فى ذقنه ، وراح يعوى بطريقة تمزق نياط القلوب ، كأنه حيوان جريح ...

- « اهدأ يا أحمق .. اهدأ ! »

ومضت ثلاث دقائق قبل أن يستعيد تماسكه وهدوءه ، وفى هذه المرة قررت أن ما لدى على طرف المبضع كاف .. هناك قطعة جلد وقطرات دم .. هذا كاف جداً ..

دوت صرخة الكائن المريعة العاتية ، وطار ذراعه فى الهواء ليطيّرنى بدورى متراً فى الهواء ..

ودون كلمة أخرى وضعت كل شيء في حقيبة يد ، واتجهت مغادرًا المنزل ، وصاح (فرانكنشتاين) مناديًا وأنا على السلم الخلفي للدار :

- « إلى أين الآن ؟ » .

- « إلى (لوسيرن) .. حالا .. يجب تحميض هذا الفيلم وإجراء فحص معين بصدد هذه العينات .. » .

★ ★ ★

كان أول ما قمت به هو حجز غرفة في فندق - لم يكن هذا موسمًا سياحيًا لحسن حظي - ثم إرسال العينات مع العنوان في طرد خاص إلى الدكتور (شوندر) في (جنيف) ، وشرحت له مفتاح العينات وما أريده منه .. ثم توجهت لتحميض الفيلم في أحد المعامل .. لو كانت كاميرات (الفيديو) المحمولة معروفة في ذلك الزمن لما كانت بي حاجة إلى كل هذه التعقيدات ..

وأخيرًا سمحوا لي بمشاهدة الطبعة الإيجابية من الفيلم في المعمل ، وكان تعليق الموظف هو :

- « ظريف جدًا .. ظريف ! تقوم بتصوير أفلام (فرانكنشتاين) المرعبة ، ولكن بأساليب الهواة ! » .

وجلسنا نشاهد الفيلم .. كنت أفتش عن خطأ ما لكني لم أجد .. الصورة ممتازة شديدة الوضوح ، وإضاءتها موزعة بدقة .. الجسد النائم الذي تغطت قدماه بالملاءة .. والصمت .. ثم تألق الصورة يتزايد ويتزايد ، وأخيرًا يتحرك الكائن ويرفع ذراعه ويئن .. ثم يملأ الدخان المكان وأرى أشباحًا تدخل الكادر .. هؤلاء نحن طبعًا .. ثم تظهر الأرقام المميزة لانتهاء (الشارج) كما يقول السينمائيون ، وتظهر شاشة بيضاء ..

أخذت الفيلم شاكرًا شاعرًا بما يشعر به من داس على كابل من كابلات الفولت العالي ..

لا تلاعب في الأمر .. هذا الفيلم حقيقي يظهر بدقة كل ما حدث منذ غادرنا الغرفة حتى عدنا لها ..

ما التفسير ؟

ما التفسير ؟

كلا .. لن أقولها أبدا برغم أن الإغراء شديد : تجربة (فرانكنشتاين) نجحت ببساطة ، وأخته هي أول نموذج نجح في تجاربه ، لأن حبه الشديد لها جعله لا يطيق فكرة موتها .. لقد نبش قبرها وأعاد تركيب أجزائها .. ثم ... لهذا هي مريضة هشة قابلة للتفكك ..

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم !!

لقد صارت الفكرة أكثر مرونة وقابلية للابتلاع بالنسبة لي .. لقد وجد الشيطان ثغرة ضيقة يتسلل بها إلى روحي ، وهاهو ذا عاكف على توسيعها برأسه ذي قرني التيس .. إنه ـ عليه اللعنة ـ مثابر لا يكل ولا يمل .. لقد كنت أرفض الفكرة رفضاً تاماً لكن ببطء وجدتني أتكلم عنها .. بعد قليل ربما أقبلها ...

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم !!

هذا هو ما عرفته في دار هذين الأحمقين .. الفتنة ولا شيء سواها .. أنا المخطئ حين سمحت لتجربة كهذه بأن تتم أمامي .. هناك أشياء لا يصح العبث بها أو اللعب حول حدودها ..

والآن ماذا أنتظر ؟ ماذا يمنعني من الرحيل ؟

لكنني كنت أعرف الجواب ..

كنت بحاجة إلى البقاء كي أفند هذا الهراء .. كي أبرهن أنهما مخطئان .. هكذا سيستقر المنطق ، من دون ثغرات ولا ألعاب حواة ..

* * *

وقضيت في (لوسيرن) يومين لأنني كنت بحاجة إلى نسيان البيت المشئوم لآل (فرانكنشتاين) ..

وفي اليوم الثالث جاءتني برقية من الدكتور (شولتز) على الفندق الذي أرسلت له عنوانه :

« عزيزي بروفسور (إسماعيل) :

.. سرني أن تلقيت منك هذه العينات التي تقول إنها من صميم تجارب البروفسور (فرانكنشتاين) ، ولقد قمت بتحليل الأنسجة والدم بمعرفة أحد المختصين في الطب العدلي ، وباستخدام أسلوب الترسيب

المناعى(*) ، فوجدنا أن الأنسجة متطابقة تمامًا فى عينتى (قبل) و (بعد) ..

« بعبارة أخرى أنت تتعامل مع الكائن ذاته فى المرتين .. كن واثقًا من هذا وتصرف على أساسه .

« بإخلاص : ف . شوندر »

فرغت من قراءة الخطاب ودار رأسى ...

* * *

كان ما ذكره الخطاب بالغ الأهمية ، لأنه يقول إن الكائن هو الكائن قبل وبعد التجربة .. أى إنهما - آل (فرانكنشتاين) - لم يستبدلا بالكائن الميت آخر حيًا يشبهه .. كان هذا واردًا مع مغادرتنا الغرفة وكل هذا الدخان ، لكن جاءت برقية (شوندر) لتنفى هذا نفيًا قاسيًا ...

(*) يا لهذه الأساليب العتيقة قبل عهد البصمات الجينية وما إلى ذلك ! إن الترسيب المناعى الآن هو قطعة من التاريخ كالتليفزيون الأبيض والأسود والمذياع ذى المصابيح ..

يا إلهى الرحيم ! والحل ؟

الحل أن أعود إلى المنزل الريفى ، وأفتش عن دليل .. دليل على الطريقة التى خدعانى بها ..

* * *

١٠ـ شيء غريب يدور عندكم ..

كانت هذه الظهيرة حين نزلت من سيارة الأجرة ، ومشيت الميل الأخير الذى يفصلنى عن دار (فرانكنشتاين) .. كنت بحاجة للتفكير على مهل ..

الآن أرى بحيرة (لوسيرن) بارعة الحسن ، فأتذكر أن هناك جمالاً فى هذا الكون .. أقف أمامها وأغمغم سبحان الله .. لقد نسيت بحق كل هذا الجمال وسط الجو الكئيب المفعم بالجثث المتحللة ، والأطراف الموصولة ..

ثمة صياد فى قارب .. لابد أنه أحمق كى يحاول الصيد فى هذا الطقس .. ومن بعيد أرى البيت الرهيب بما فيه من أسرار .. صحيح أنه ليس قلعة تحيط بها الصواعق ، لكنه قد اكتسب هيبة خاصة به برغم طرازه الحديث ..

ومررت بجوار الصياد فسمعته ينادينى بإنجليزية جيدة :

ـ « دكتور (إسماعيل) ! هل لى بدقيقة من وقتك ؟ »

نظرت له فى دهشة .. وأدركت على الفور أنه ليس صيادًا .. إن له ذلك الوجه المربع مشقوق الذقن لامع العينين .. وجه محترف .. محترف لماذا ؟ لا أدرى بالضبط .. هذا الوجه لا يكون صاحبه إلا قاتلاً أجيرًا أو رجل شرطة سرية .. دنوت منه أكثر ورسمت بحاجبى علامة استفهام ، فضحك وقال وهو يخرج من جيبه شيئًا يشبه البادج محفوظًا فى بطاقته (وهو مشهد ألفته من الأفلام الأمريكية) :

ـ « شرطة .. أنا المفتش (كارل بايير) .. أعرف أننى أضايقك ؛ لكنى أعرف كذلك أنك رجل شريف لا يحب أن يتورط فيما يخالف القانون »

نظرت حولى ، ثم دنوت منه أكثر وتساءلت :

ـ « كل هذا جميل أيها المفتش ، لكنى أكون شاكرًا لو أوضحت الأمر بدلاً من المقدمات الطويلة .. »

ـ « آل (فرانكنشتاين) »

قالها وأشعل لفافة تبغ بصعوبة لأن الريح كانت تهب من هنا .. نعم هو من الرجال الذين يتكلمون والثقافة فى فمهم مع التقطيب ليبدوا محـترفين .. وبالطبع لم أستطع أن أقول له (اشمعنى ؟) .. ثم أردف :

ـ « أنت تقيم عندهم من فترة ، وأعتقد أن لديك فكرة لا بأس بها عن التجارب المريعة التى يقومون بها ..

« ليس التدخل فى هذه الأمور من شأننا .. لكن الأمور بدأت تتخذ منحى غريبًا منذ كثرت حوادث سرقة المقابر .. نعم .. هناك مقابر كثيرة وجدت مفتوحة وقد سرقت من الجثث أطراف تم نشرها .. هذا يشير إلى الطب عامة .. كل طلبة الطب يسرقون الجثث فى كل مكان من عهد (فيزاليوس) حتى اليوم .. »

ـ « دعنى أؤكد لك أننى لم أسرق جثة طيلة فترة دراستى .. لابد أن هذا احتاج إلى قوة إرادة عالية منى .. »

ابتسم تلك الابتسامة السمجة .. ابتسامة محترف .. وقال :

ـ « ليكن .. لكننا لسنا واثقين إلى هذا الحد من آل (فرانكنشتاين) .. إن الأخبار تنتقل بسرعة ، وقد شوهد عدد من المشبوهين يسلمون أشياء فى أكياس للطبيب حين يسدل الليل أستاره ..

« للأسف لم نستطع الإمساك بأحد متلبسًا ، بالإضافة إلى أن أدلتنا واهية لا تسمح باستصدار أمر تفتيش .. لكن الأمر بدأ يزداد سوءًا منذ فترة مع قتل عابرى السبيل والمتسولين أو ناقصى الأهلية .. »

هنا تصلبت ، وبذلت مجهودًا عظيمًا كى لا أسقط فى الماء .. هذا غريب بحق .. قال الرجل وهو مستمتع بدهشتى :

ـ « لا تندهش .. لقد مات ثلاثة أو أربعة .. ومجموع الأجزاء المسروقة من الجثث تسمح بتكوين جثة جديدة تمامًا .. هل تفهمنى ؟ يبدو أن التجارب صارت تحتاج إلى أجزاء طازجة من الجثث .. لم تعد الجثث القديمة تصلح » .

- « ولم لم تقتحموا البيت وتفتشوه ؟ »

- « لأننا فى سويسرا هنا .. ولا يمكن عمل شىء كهذا ما لم يكن معك أمر من المحكمة .. طبعًا اتجه أحدنا فى تهذيب ليلقى البروفسور وطلب تفتيش البيت ، لكن هذا طرده دون كلمة واحدة .. المحكمة لا ترى فى الإشاعات التى تملأ الضاحية ما يبرر انتهاك حرمة دار الطبيب المخبول .. وهكذا أنا فى مأزق .. لابد من إثبات .. والإثبات يحتاج إلى تفتيش البيت .. وتفتيش البيت يحتاج إلى إثبات .. هذه هى الدائرة الكريتانية الشهيرة فى علم الكلام ، ولا خلاص منها إلا بأن تساعدنا .. »

وضاقت عيناه كعينى ذئب ، وقال :

- « ما الذى رأيته خلف جدران هذا البيت يا د. (رفعت) ؟ »

* * *

هنا قررت أن أصمت .. لا أريد أن أتورط مع البوليس السويسرى أو أورط (فرانكنشتاين) قبل أن أتأكد مما يحدث حقًا ، وهكذا تظاهرت بالغباء وهززت رأسى :

- « لا يوجد شىء ذو بال .. فقط تجارب بالليزر على الخلايا .. »

ظل يرمقنى فى ثبات وقتًا طويلاً بنظرة مربكة من طراز (لقد - بدأت - الكذب - إذن) .. ثم مضغ لفافة التبغ ، وقال :

- « ألا يوجد مسخ تم تشكيله من أجزاء مبتورة ؟ تذكر جيدًا .. لعلك نسيت .. »

- « إن ذاكرتى ضعيفة على كل حال لكن ليس إلى هذا الحد .. »

- « شكرًا يا د. (إسماعيل) .. لقد كنت جم الفائدة حقًا .. »

وعاد يجلس فى قاربه وأمسك بالمجداف وقال :

- « لو كنت تكتم شيئًا ما فسوف تجد أن القانون صارم هاهنا .. ولا يقبل إخفاء الشهادة .. »

ثم راح يبتعد بالقارب ، وضربات المجداف تضرب أفكارى فى الوقت ذاته .. ومتثاقلاً اتجهت إلى بيت (فرانكنشتاين) ..

* * *

(أجاثا) فى الفراش مريضة كعادتها ، أما (بيتر فرانكنشتاين) نفسه فلم يذكر من أنا ، وراح يتساءل بالألمانية عن المرة التى التقينا فيها ، كما راح يلومنى بقسوة على أن زجاجات اللبن تتهشم حيث أتركها أمام الباب صباحًا ، حتى ذكره (أدولف) بشخصيتى ..

كان (بيتر) ثائرًا حانقًا .. لماذا ؟ لأن الكائن الذى صنعه أو (بروميثيوس) قد فرّ ..

كيف حدث هذا ؟ حدث أمس عند الغروب .. لقد اصطحبه إلى الشاطئ ليرى البحيرة .. كان هذا فى سياق تعليم الكائن تفاصيل العالم الخارجى .. لابد من تلقينه الكلمات الأولية وعادات البشر ..

يقول (فرانكنشتاين) إن الشرود اعتراه ـ كالعادة ـ فراح يرمق البحيرة ذاهلاً ، وحين أفاق لم يجد المخلوق جواره .. لقد اختفى .. تلاشى تمامًا .. وقد جن جنونه وراح يفتش فى كل صوب .. خرجت (أجاثا) معه إلى البحيرة وبحثا كثيرًا جدًا لكن لا جدوى .. لقد ذاب وعلينا البدء من جديد ..

قلت له فى تهكم وأنا أدخل حقيبتى إلى المنزل :

ـ « لا بأس .. أعتقد أنك صرت خبيرًا فى فن صنع المسوخ .. إن النموذج (بروميثيوس ـ ٤) سيكون متقنًا بحق .. »

قال لى فى شىء من الضيق ، وعيناه اللامعتان تزدادان اتساعًا :

ـ « ربما .. لكن هل تأكدت من (بروميثيوس ـ ٣) ؟ »

ـ « كل شىء يؤكد نجاحك ولا يعلم سوى الله كيف فعلت هذا .. »

ـ « تعنى : كيف صنعت الكائن ؟ »

ـ « بل كيف أقنعتنى به .. »

ومن دون كلمة أخرى سبقته إلى الداخل ، وأنا أستعيد تلك الرائحة العفنة الغريبة المميزة لداره .. رائحة كل الأنسجة العضوية التى راح يجرى تجاربه عليها منذ زمن .. الآن أفهم لماذا لم يكن البخور ينقطع فى دار (ريا و سكينة) سفاحتى النساء الشهيرتين ..

هل لهما حقًا علاقة بجرائم القتل هذه ؟ كل شىء ممكن لكنهما ليسا القاتل على كل حال.. القاتل فى مكان ما بالخارج يبحث عن أجزاء مناسبة لـ (بروميثيوس ـ ٤)..

وفى هذه المرة صعدت إلى غرفة الفتاة دون استئذان .. فقط قرعت الباب ودخلت ، وكانت هناك فى فراشها ، وقد ازدادت شحوبًا ونحولاً ..

سمعت صوت طرقاتى ففتحت عينيها ، وسعلت مرتين ثم قالت :

ـ « دكتور (رفعت) .. قد عدت من (لوسيرن) سريعًا ، وكنت أحسبك لن تعود أبدًا .. كيف حالك ؟ »

ـ « بخير للأسف .. » ـ وقربت مقعدًا منها ورحت أقيس نبضها ـ « أريد أن تذهبى معى إلى (جنيف) حيث يجرى لك فحص طبى شامل .. إن مرضًا عضالاً يخرب جسدك الآن بالتأكيد .. الرقة لا تعنى أن تموتى ثلاث مرات كل أسبوع ! »

ضحكت حتى راح صدرها (يشخشخ) بلا انقطاع ، وقالت :

ـ « مستحيل يا دكتور (رفعت) ! الحقيقة هى أنك لا تعرف إلا ربع الحقيقة !! »

وفهمت على الفور ما تريد قوله .. لكنى لم أقتنع به .. وحانت منى التفاتة إلى صورتها المعلقة ذات الشريط الأسود ، وسألتها فى حذر :

ـ « هذه ليست صورة الوالدة طبعًا .. »

ابتسمت فى خبث برغم سقمها وهزت رأسها أن لا .. ثم همست :

ـ « هذه صورتى !! إن سرطان الدم مرض خطير كما تعلم .. »

وبنظرة حازمة قالت وهى تعتدل فى رقدتها بعض الشىء :

ـ « هذه المحادثة لن تخرج من هذه الغرفة ، ولو خرجت فسوف أزعم أنك مخبول وأنكر كل حرف تقوله الآن .. أنا لن أتحول إلى فأر تجارب بشرى أبدًا .. فهمت ؟! »

* * *

١١ - هكذا أُمرت ..

ينتظر فى الظلام قرب البحيرة ..

يعرف أن عليه الانتظار .. ليس لديه عمل آخر ولا سبب ثان للوجود ، وهو لا يملك أن يتساءل . وليست لديه إرادة خاصة به ..

ثمة كلب يعوى فى مكان ما .. يمر به .. إنه يخاف الكلاب ، لهذا يكشر عن أنيابه ويعوى بدوره كى يتراجع المخلوق المشعر ذو الأنياب ..

لقد دنا موعد الطعام .. العشاء الساخن لدى الأسرة ، لكن الأوامر التى صدرت له هى : لا تعد للعشاء إلا بعد أن تنتهى من مهمتك ..

لقد شرحوا له المهمة ببساطة .. جعلوه ينظر من النافذة ويرى ذلك القارب فى البحيرة ، يركبه صياد ضخم الجثة لا يكف عن إطلاق الدخان من أنفه ، ولا يكف عن اختلاس النظرات إلى الدار ..

ـ « هل ترى هذا ؟ هذا سين .. سين .. »

ثم كالعادة ناولوه الخنجر الكبير والمنشار ، وأشاروا إلى العنق ..

فتحوا له الباب الخلفى ، وعلقوا الحقيبة الجلدية الجميلة على كتفه .. الحقيبة التى عليها صورة نمر ، ثم أغلقوا الباب ..

وهكذا وجد نفسه يمشى فى الظلام فوق الدرجات الحجرية الهابطة حتى البحيرة والقارب ذى المجدافين المربوط إلى المرسى ..

الكلب يواصل النباح .. يلاحق ساقيه .. تبًا .. إنه سيلفت الأنظار له .. لم يكن هناك مجال للتردد .. انحنى وأطبق أنامله الغليظة على عنق الكلب وراح يضغط .. يضغط ..

وانتهى من مهمته ، فنزل إلى القارب .. كان يتأرجح ذات اليمين واليسار .. لأعلى وأسفل .. لكنه كان يعرف كيف يتحكم فيه .. انتظر بعض الوقت كما أمروه .. ثم أمسك بالمجدافين ، وراح يتوغل فى البحيرة فى الظلام ..

هذا سيئ .. سيئ ..

الرجل السيئ ينتظر فى قاربه هناك عند الضفة الأخرى ، وفى يده منظار يسلطه على المنزل دون انقطاع ..

حتى فى الظلام لا يكف عن النظر ... هذا حق .. ودنا منه بالقارب فنظر له الصياد مندهشًا .. إنه لم يعتد رؤية صيادين دانين منه إلى هذا الحد وفى هذا الوقت ..

كان فى فمه لفافة يطلق منها الدخان .. هذا سيئ .. سيئ ..

قال له الصياد شيئًا لم يتبينه ، ثم قال بلهجة آمرة :

ـ « غريب أن تختار هذا الموضع بالذات دون سواه فى البحيرة كلها .. أرجو أن ترحل .. »

ولما لم ينصرف ، أخرج الصياد كشافًا من مكان ما فى القارب وأضاءه ليرى وجه هذا القادم الجديد ..

لا بد أن ما رآه لم يرق له كثيرًا ، لأنه مد يده فى جيب سترته ، يريد إخراج شىء ما وهو يصيح فى رعب :

ـ « يا للهول !! »

هنا يثب من القارب فوق الصياد فى قاربه .. ويتمايل القارب الأخير ، لكنه يكون قد أولج خنجره حتى المقبض فى عنق الصياد .. يطلق صوت حشرجة طويلة ، ثم ينقلب القارب فى الماء ويغوص كلاهما ..

كلا .. لم تنته المهمة بعد ..

يخرج من الماء إلى المرفأ .. يجر جثة الصياد معه ، وهو يعرف أن مهمته الآن هى انتزاع هذا الرأس ووضعه فى الحقيبة لأنهم يريدونه .. بعد هذا عليه أن يبعد الجثة عن البحيرة قدر الإمكان .. ربما إلى الغابة القريبة ..

الآن يمكنه الظفر بالعشاء الساخن والنوم فى الدفء حتى الغد ..

غدًا سيقوم بعمل مماثل بالتأكيد ..

* * *

وفى الدار كنت جالسًا بقاعة الجلوس أقرأ بعض الأوراق العلمية التى نشرها (فرانكنشتاين) من قبل ، وكلها تعتمد على خواص التحلل فى الخلايا ومحاولة السيطرة عليها ..

يخرج من الماء إلى المرفأ .. يجر جثة الصياد معه ..

ـ كان هناك كتاب صغير مبسط عن الليزر قرأته بعناية ، فبدا لى الأمر غريباً بعض الشىء ..

ليس الليزر شعاعاً سحرياً يفعل المعجزات .. إنه ـ ببساطة ـ حزمة من الضوء المركز عديم التشتت ، ويمكن التحكم فى اتجاهه بدقة .. يمكن استخدامه كمبضع جراحى أو آلة كىّ أو لوقف النزف .. كل هذا جميل وله أهميته .. لكن ما أريد قوله هنا هو أن الليزر ليس شيئاً سحرياً ، ولا يمكنه بحال إعادة الخلايا الميتة إلى الحياة ..

المشكلة هى أننا نعرف عنه أقل القليل لذا نصدق كل ما يقال عنه ..

وتذكرت ما صاحب اكتشاف الهرمونات ، حين كان الناس يحسبونها قادرة على عمل كل شىء وشفاء كل مرض ..

الآن يحاول (فرانكنشتاين) استغلال الليزر للنصب .. والجاهل ـ من أمثالي ـ يصدق كل شىء ..



★ ★ ★

وعند الغابة ـ وهو منهمك فى جر الجثة منزوعة الرأس ـ سمع من يصيح به :

ـ « أنت !! قف عندك ! »

لكنه لم يبال بهذا التحذير وواصل جر الجسد ، ولم يبال كذلك بضوء الكشاف الذى غمر المكان وكاد يعمى عينيه ، لكنه واصل المشى ولم يتخل عن الشىء الذى يجره .. فقط زاد من سرعته أكثر ..

ـ « أنت !! قف عندك ! »

وكان هذا كافيًا كى يرفع المزارع بندقيته ، ويطلق الرصاص على ذلك الشىء المرعب الذى يجر جثة لا رأس لها .. وفيما بعد قال لامرأته إنه شعر بأن هذا هو الشيطان ذاته ، وهو ليس نادمًا على الإطلاق على ما فعله ..

بوم !

* * *

بوم !

سمعت الطلقة حيث أنا فى القاعة ، لكنى لم أهتم كثيرًا بذلك باعتبار تفجير الإنسان لرأسه أو رأس زوجته حقًا طبيعيًا من حقوقه .. لكنى سمعت المزيد من الضوضاء ، وعرفت أن حدثًا جللا يحدث هناك ..

تنهدت وواصلت تفحص الصور الفوتوغرافية التى لدى ..

بعد دقائق نزلت (أجاثا) مترنحة من غرفتها ، وكان شعرها المنكوش ووجهها الشاحب ونظرة الرعب فى عينيها ، كلها أشياء جديرة بزومبى يغادر قبره فى (هايتى) .. لا بأس .. لقد اعتدت هذا ..

قالت لى فى فزع :

ـ « ماذا حدث ؟ لماذا يطلقون الرصاص ؟ »

قلت دون أن أرفع عينى إليها :

ـ « أحدهم يقتل أحدهم .. هذه الأشياء تحدث ! »

ابتلعت ريقها ونظرت إلى الخارج حيث الظلام متوجسة ..

ساد الصمت برهة ثم قلت لها فى هدوء :

- « متى قمت بتبديل العينات فى غرفتى ؟ »

نظرت لى كالملسوعة ، واتسعت عيناها كما يفعل مصاصو دماء (هامر) فى السينما حين يرون الصليب ، وهتفت :

- « ما هذه الهلاوس ؟ »

- « أنت قمت بتبديل العينات التى أخذتها من هذا الكائن .. أعرف هذا ولدى دليل عليه .. »

- « أنت تخرف ! لقد انتهيت من تجاربك فحملت العينات وغادرت الدار مسرعًا إلى (لوسيرن) .. لم يكن هناك وقت كاف لتبديل أية عينات لو كان هذا ما تعنيه .. »

قلت دون أن أنظر إليها لأبدو قويًا كما يفعلون فى السينما :

- « أنا لا أتحدث عن تلاعب فى عينات (بعد) بل فى عينات (قبل) .. لقد تسللت لغرفتى وقمت بأخذ عينات الكائن الميت ، ووضعت مكانها عينات الكائن

الحى .. لابد أنك بارعة فى التزوير حقًا حتى لفقت توقيعى على أنابيب الاختبار وكل شىء .. وكنت تعرفين أننى سأقوم بمقارنة هذه العينات لأتأكد من أن الكائن هو نفسه من رأيته ميتًا .. هذا سهل .. الآن يمكننى القول إن لديكما إنسانًا مسكينًا لا أدرى من هو .. ربما هو متخلف عقليًا كذلك .. هذا الإنسان جعلت منه نموذجًا للمخلوق الذى سينهض ، وصنعت جثة تشبهه تمامًا باستخدام المكياج وبراعة (فرانكنشتاين) السابقة فى جراحة التجميل .. مع بعض لمسات على النموذج الحى نفسه ليعطى الإيحاء بأنه مر بجراحة غريبة .

« وأظن هذه هى الجراحة ذاتها التى مررت أنت بها لتعطينا الإيحاء بأنك جثة ! »

صاحت فى جنون حقيقى :

- « أنت تهرف بما لا تعلم .. أنت لا تملك دليلاً من أى نوع ! »

قلت لها بنفس البرود :

ـ « يبقى لدينا موضوع الفيلم ، وهو أسهل الأجزاء ؛ لأن الفيلم تم تصويره بالكامل قبل هذا ، ولم تكن الكاميرا تعمل حين حسبتها أنا كذلك .. الأمر سهل .. لأنك توقعت بالضبط ما سيحدث : الضوء الساطع .. الدخان .. دخولنا إلى الكادر .. وقمت بعمل هذا كله .. لكنك نسيت شيئين : نسيت وضع الملاءة الذى اختلف بين الفيلم والحقيقة ، ونسيت أن الإضاءة كانت خافتة جدًا فى الغرفة ، فمن أين جاءت تلك الإضاءة الساطعة المبهرة التى نراها فى الفيلم ؟ من فحص لى الفيلم وطبعه قال إن هذه إضاءة ستوديو سينمائى .. إضاءة محترفين .. فمن أين جاءت ؟ »

كانت عيناها متسعتين تمامًا .. لم يبق مزيد من الاتساع لها إن شاءت أن تظلا فى محجريهما .. وقالت :

ـ « أنت خمنت كل شىء .. ولكن قل لى بحق كيف عرفت أننى تسللت لحجرتك ؟ تقول إن هناك دليلاً .. »

ـ « لا دليل .. كنت أكذب ! »

كانت طلقة اختبار لكنها أدت عملها جيدًا ، وفى اللحظة التالية سمعنا صوت طرقات على الباب .. طرقات بوليسية حازمة .. لم تبد الفتاة حراكًا فنهضت أنا لأفتح الباب .. كان هناك ستة رجال مكفهرى الوجوه ، ولا شك فى أنهم رجال شرطة ..

قال أحدهم فى حزم بالألمانية :

ـ « معذرة يا سيدى .. إن معنا أمرًا بتفتيش هذا البيت .. »

وهنا دوت الطلقة ....

ونظرت للوراء فوجدتها ما زالت جالسة .. المسدس فى يدها .. وتلك الثقب القبيح الدامى فى صدغها ..

* * *

١٢ - الخاتمة ..

هنا فقط عرفت أن (بيتر فرانكنشتاين) كان بريئاً .. مجرد مخلوق مخبول تعس يعيش فى عالم وهمى ، وبالتأكيد ما كان ليظل حياً يوماً آخر لولا شقيقته ..

حين سمع الطلقة ورأى جثتها ، راح يعوى كالكلاب ويلطم خديه ، ثم تكور على الأرض وراح يمص إبهامه كالرضع ، ويئن أنيناً متواصلا يمزق نياط القلب ..

وبدأت خيوط القصة تتضح أكثر فأكثر ..

كانت هناك عدة عوامل تحرك شخصية (أجاثا فرانكنشتاين) المعقدة الشرسة بطبيعتها .. كانت تعشق الموت منذ طفولتها ، وهو ما يسمونه أحياناً بالـ (نهلزم) ـ العدمية ـ وأحياناً هو (النكروفيليا) .. كانت تحب المقابر وتتسلى بلعب دور الجثث فى كل صورة ممكنة ..

حين كبرت ، شعرت بأن دماء جدودها التى تجرى فى عروقها تطالب بالتغيير .. تطالب بالسيادة .. وفى الوقت ذاته كانت مولعة بقراءة (مارى شيللى) حتى إنها كانت تعتقد أن روح الأديبة حلت فيها هى (الواقع أنها تشبهها بحق) ..

هكذا بدأت تنفيذ المؤامرة الكبرى التى ستجعل أخاها شهيراً .. خاصة لو تم هذا أمام شاهد مثلى .. وفى اللحظة المناسبة كان الكائن سيختفى وربما يحترق المعمل كله بما فيه من أجهزة .. هكذا سيغدو إثبات كلامها مستحيلا ، لكن الشوشرة والدوى المحيطين باسم (فرانكنشتاين) سيعيشان لفترة طويلة جداً ..

هناك عامل مهم آخر هو استمتاعها الخاص بجو الموت والجثث ولعب دور الميتة الحية .. إلى حد أنها سمحت لأخيها بإحداث آثار تشويه فى جسدها ليوحى بأنها خرجت من جراحة معقدة ..

أما الكائن البائس فهو بالفعل كذلك : كائن بائس .. متخلف عقلياً قامت بتربيته فى القبو بعد عمل المكياج

اللازم له ، وبعد انتهاء التجربة صار دوره هو الحصول على المزيد من الأطراف البشرية ، وفى النهاية قتل المفتش لاستغلال رأسه فى مشروع جديد ..

لقد كانت مأساة حقيقية ..

وأقسى ما فيها هو أن الفتاة لعبت دورها ببراعة لا تصدق ..

لكنها لم تحتمل فكرة انكشافها ..

* * *

انتهت أسطورة (فرانكنشتاين) لتبدأ قصة رهيبة أخرى ..

قصة تتحدث عن كلمات سبع .. لكنها ليست كلمات عادية .. كلمات لها القدرة على ....

لكن هذه قصة أخرى .

د. رفعت إسماعيل

القاهرة